عبد الرحمن دويدة

تأملات

من وحي القراءة والتجربة

الطبعة 2

صـــرير القلم اليوم
هو نفير الإصلاح غدا

- توفيق الحكيم -

إهداء

إلى الشجرة التي تم قصها، ليصدر هذا الكتاب:
أرجوا أن تكون هذه الصفحات ليست مجرد تبذير للورق
وأن يستحق محتواها فعلا، ما قُطعتِ " أيتها النافعة " لأجله
فلا يُقطع النافع إلا لغاية نفعية أكبر، وإلا كان ذلك إفساداً
وكنا نحن بهذا الفعل من ... المفسدين
وهذا والله ما لا نريد
فشكرا .... وعذرا.

كلمة المؤلف

هذه مجموعة تأملات من وحي القراءة والتجربة والتأمل، قد جاد بها العقد الرابع من عمري، أعالج فيها قضايا المعيشي واليومي للإنسان المسلم، فهي تمسّ ما نعيشه كل يوم، وما نحمله من هموم كأفراد، وما تعانيه أمتنا ووطننا من مشاكل وركود.

وقد أبيت لهذه الأفكار إلا أن تخرج لدنيا الناس، ولا تبقى حبيسة صدري صامته، علها تصل إلى حيث شاء الله لها أن تصل، وتنفع من كتب الله له بها الانتفاع، فتكون سببا -إذا أذن الله- في صلاح العباد والبلاد ...

إن ما جاء في هذا السفر الخفيف، ليس بحثا أكاديميا ممنهجا، إنما شيء من الخواطر العفوية بعنوان (سيستقيم حالنا إذا ...) قد رتبتها في ثلاث أبواب: (تأملات في منهج الحياة، تأملات في علاقة الانسان بأخيه الانسان، تأملات في الأسرة) وهي ما رأيت فيها حسب مستواي المعرفي الحالي، أنها قد تكون سببا – إذا أذن الله – في صلاح بعض حال العباد والبلاد.

والله من وراء القصد، وهو وحده الموفق والمعين

عبد الرحمن دويدة
يـوم: 07 ماي 2025

تأملات
في مَنهج الحياة

سـيستقيم حالنا (01)
(إذا غيّرنا ... صياغة أهدافنا)

إننا وضـمن طقوسـنا نهاية كل عام، وحين نكون بصـدد تجهيز قائمة أهدافنا، للعام الجديد، نطرح عادة هذا السؤال (ماذا نريد) من الدنيا ؟ وكأننا نزور معرضـا من المتع والأماني، نريد أن نأخذ فقط، لكن، في الحقيقة كان من الأولى بنا أن نسأل: (مالذي تريده منا الحياة)؟.

فالفرق بين السؤالين، هو أن الأول به نزعة استهلاكية، فصاحبه سيعيش الحياة بذهنية المستهلك، والثاني سيعيشها بوعي المستخلَف. الأول سيعيش فيها باحثا عن حقوقه، والثاني سيحياها باحثا عن واجباته.

إن تغيير صيغة السؤال، هو في الحقيقة، ليس مجرد تغيير في مواضع الكلمات، بل هو إعادة ضبط لبوصلة وجهتنا في الحياة ودورنا المنتظر فيها، هو محاولة وعي بالمهمة، وإدراك للغاية، حتى لا تُقاد حياتنا بشهوة التمني، بل تسير بنور التكليف، ويكون حضورنا وجهدنا المبذول ليس وفق أمانينا، ولكن وفق مراد الله منا.

فعلى الانسـان، أن يعيش متسـائلا، عن حاجة الدنيا منه، وليس عن حاجاته هو من الدنيا، فالحياة ليسـت معرضـا نأخذ منه ما نريد، بل مكان ندخله لنعطي، ثم نخرج منه لنأخذ من هناك، حيث الجنة

فاسأل نفسك، أينما حللت وفي أي مجلس كنت فيه (العمل، المدرسة، الجامعة): مالحكمة من تواجدي في هذا المكان؟ ماذا يريد الله مني هنا؟ من يحتاجني هنا؟ من أحتاجه أنا هنا؟ ما هي رسالة هذا المكان؟ وهنا، سـتختفي العشـوائية من يومياتنا، وتغيب الفوضى عن قراراتنا، وستكون حياتنا حواراً دائمًا مع الله، ومع أنفسنا، والمواقف من حولنا.

سـيستقيم حالنا (02)
(إذا تذكرنا بأننا ... مُسلمون)

إن المتأمل في سلوك ونمط عيش مجتمعنا العربي عامة والجزائري خاصة، يرى وكأن هذا المجتمع صار يعيش بأسلوب لا نقول بأنه أسلوب إنسان غير المسلم، لكنه أسلوب من "نسـي أنه مسلم"، أسلوب من نسـي حدود الدين ومُحرماته، ووصايا ربه وتعاليمه. أسلوب من يحمل الدين كوراثة ثقافية، لكنه في المقابل لا يُلزمه بشـيء.

ولن أبالغ إن قلت بأنه، لولا ذهاب الناس للمساجد للصلاة وسماع الآذان وصيام رمضان ولبس الحجاب، لما أمكن لنا أن نجزم بأن مجتمعاتنا تحمل دينا هو خير ما ارتضاه الله للناس، وهذا بناء على ما نشاهده من سلوكيات المسلم في الأسواق والطرقات، في الإدارات والعمل والمجالس، فأصبح إلى حد ما، يصدق فينا قول ربنا: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[1].

لا أدري لماذا تفشت الفاحشية بين الشباب "المسلم" حتى اعترفت أحد بائعات الهوى الأجنبيات بأن جل زبائنها عرب مسلمون؟ لا أدري لماذا تفشت موضة الغرب في بلاد العرب؟ ولماذا وصلت التبعية لمستوى العبودية؟ والاعجاب لمستوى التقديس، لا أدري لماذا نغش ونحن (مسلمون) في المنتجات والامتحانات؟ لماذا نطفف في الميزان، لماذا نزور ونحن (مسلمون) الوثائق والشهادات لأجل بعض الاستفادات؟ لماذا نسينا ما يميزنا كمسلمين؟ لماذا صارت الغاية تبيح كل الوسائل؟ لماذا صار عيشنا على نمط الصراع من أجل البقاء رغم أنه لا بقاء.

[1]) سورة الحجرات، آية 14

إن السـبب على ما يبدو، هو أن ميزان الحكم على أعمالنا صـار: (هل حصلتُ على ما أريد؟). وليس هل فعلتُ (ما الله يريد)؟، فصارت الدنيا هي الإمام والآخرة هي المأموم، فتسابقنا في مضمار الحياة قافزين فوق حواجز المحرمات، وكأنه لا دين يضبط، ولا رب يراقب وسوف يحاسب.

فكيف أمكن لمجتمع قد وُهب وحي السـماء أن يعيش وكأن الله لم يخاطبه ولن يحاسبه؟ ماذا حصل حتى صارت تعاليم الله منسية غريبة في بيئتها الأصل؟ لماذا لم نعد نعيش الدنيا ببَعدها ... الأخروي؟

إنه حين تتحول الدنيا إلى إمام، وتصـبح الآخرة مأمومة خلفها، فانتظر كل شيء: انتظر أن يبرر الناس لأنفسـهم كل سـلوك سيء، وأن يزينوا كل خطيئة، وأن يصنعوا تدينا يناسب شهواتهم، لا دينا يُهذبها.

نحن بحاجة إلى أن نتذكر بأننا مسـلمون، أن نتذكر أننا مؤمنون بالله واليوم الآخر، مكرمون بالوحي، أهل رسالة، وأتباع نبي ومنهاج قويم ..

لنتذكر أننا أهل الحلال والحرام، لنتذكر حدود الله التي وضـعها وبيّنها، لنتذكر أن المسـلم لا يسـرق ولا يزني ولا يكذب ولا يغش، لنتذكر أن المسلم هو الانسان الذي إذا سار في الأرض، سارت معه قيم الله.

لنتذكر أننا لسنا هنا للصـراع من أجل البقاء، بل للسعي من أجل حضور جميل ورحيل أجمل، نحن هنا لخوض رحلة تزكية للنفس التي سـنقابل بها ربنا يوم الرجوع، لسـنا هنا للتنافس على منزل وسـيارة ومنصـب ومقام، لسنا هنا للحصول على ما نريد، بل لنفعل: ما .. الله يريد.

ولا أجمـل في هـذا المقـام، من قول المفكر الإيراني علي شريعتي: (إن التدين الذي لا ينفع صاحبه قبل الممات، لن ينفعه بعد الممات).

سـيستقيم حالنا (03)
(إذا استثمرنا في " قلوبنا ")

" ميدانكم .. هو قلوبكم "

إن أجمل استثمارات الدنيا، هي الاستثمار في القلب، تلك المضغة التي لا تنبض بالدم فقط، بل تنبض بالحياة. فهي مصـنع القرارات، ومسـتودع المشاعر، وموطن النوايا، وحلبة الصـراع بين النور والظلام، ومحل نظر الله، في الدنيا ويوم المعاد، يوم لا ينفع فيه شيء إلا النقاء

وفي الحقيقة، إن فكرة العناية بالقلب ليست أمرا مستحدثا، فقد أدركت الحضـارات القديمة أهميته، فالحضـارة الفرعونية مثلا، جعلت للقلب مكانة خاصـة في فلسـفتها الدينية والجنائزية. فقد كان المصـريون القدماء يعتقدون أنه عند انتقال الإنسـان إلى العالم الآخر، يخضـع قلبه لمحاكمة دقيقة تُعرف باسـم "محاكمة الميزان"، حيث يتم وزن قلبه في كفة، ويُوضع في الكفة الأخرى ريشة الإلهة "ماعت"، رمز الحق والعدل. فإن كان القلب نقيًا، خفيفًا من الأوزار، سُمح لصاحبه بالعبور إلى جنة الخلود، وإن كان مثقلًا بالذنوب، التهمه الوحش "عمعميت"، ذو رأس التمساح، وهو الكائن الأسطوري الذي يبتلع القلوب الفاسدة.

وأما في ديننا الحنيف، فإن القلب، هو محل نظر الله تعالى، ومستودع سر الانسان، الذي لا يرى لكنه يُبصر، ولا يسمع لكنه يُنصِت للغيب، لا يمس الأشياء ويلمس الحقائق. فإذا فُتح بابه دخل النور، وإذا أغلق ضاع الانسان في خبر كان.

إن سؤال الاستثمار في القلب، هو سؤال يستحق أن يكون مشروع الحياة، ولكن، للأسف قد أزيلت هذه الغاية من قاموس المهام الحياتية للمسلمين وسط ضجيج الحياة ورغبات الأنفس والتنافس الدنيوي غير المبرر. فصارت النفس هي المهيمنة، واليد هي العاملة والأقدام هي الساعية، أما القلب، فوضع في الرف بعيدا حيث لا يسمع صوته، فدنسه الغل، وأرهقته التعلقات الفاسدة، فمات هو وأمات حامليه.

(كيف لا؟ والقلب المثقل لا يطير، بل يسقط).

إن الاستثمار المراد، هو القلب الذي ينفق من مشاعره لله فقط، فلا يخاف إلا من الله، ولا يتعلق إلا بالله، ولا يعمل إلا لوجه الله، فصاحب القلب الجميل هو الذي "يريد" الخير، وليس فقط الذي يفعل الخير.

إن الاستثمار المُراد، هو القلب الذي يفرح بنعمة الله على الغير كأنه صاحبها.. ويحزن معهم كأن صاحب الحزن.. فقد كان نبينا عليه السلام يفتتح صباحه قائلا: (اللَّهمَّ ما أصبحَ بي من نعمةٍ أو بأحدٍ من خلقك فمنكَ وحدَك، لا شريكَ لَك، فلَك الحمدُ، ولَك الشُّكرُ)، فتأملوَا كيف قَال (أو بأحد من خلقك) ثم إلى قوله بعدها (فلك الحمد ولك الشكر)، وكأنه يقول لله تعالى: يا رب إن كنت قد أدخلتَ السعادة اليوم على أحد، فكأنما أودعتها في قلبي..

وعليه، سيستقيم حالنا إذا سأل كل منا ذاته:

(وكيف حال القلب)؟

سـيستقيم حالنا (04)
(إذا جمعنا ... الحسنيين)

أينما وُجد التطرف، رافقه الفشل
وأينما وجد التوازن، عاش معه النجاح ودام.

ديننا الجميل، يرفع الإنسان في سماء الوجود بجناحي الوسطية، صانعا كيانا يجمع بين الغيب والشهادة، بين الدنيا والدين، وبين الروح والجسد، ويظهر هذا في ثنائيات جميلة باح بها القرآن الكريم، ولكنها لم تنل حظها من التدبر العملي في دنيا المسلمين، ولعل بعضها كالآتي:

- الثنائية الأولى: قال تعالى (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... وَالْإِيمَانَ)[2]:

إن تقارير الواقع تقول بأن المسلمين اكتفوا بالإيمان دون العلم التجريبي والتكنولوجي، وكأنهم مطالبون بقراءة السماء فقط، وليس بكتابة الأرض وإعمارها، فأخذنا الايمان وتركنا الطب والهندسة والفلك ووالفيزياء والكيمياء وكل مداخل التكنولوجيا، طالما أن هناك من يفعلها بالنيابة، فأخذها غيرنا بقوة وصنع بها سُلطانه، ثم عاد ليبيعها لنا بأغلى الأثمان.

إن الله يريد أن يكون عبده المسلم، شخصا يعرف حدود الشريعة ويجيد قوانين الطبيعة، شخصا يبني المساجد ويشيد المختبرات، يحفظ القرآن ويجيد البرمجة. يرتل آيات الخلق، وينظر إليها بعلم الفلك، يقرأ آيات البحار ويسافر فيها بصناعة السفن.

إن الله تعالى لا يريد أن يسبح عبده فقط في غيبيات السماء ويهمل واقع الأرض، نعم، يحب الله رؤية عبده في الصف الأول في صلاة الفجر،

[2]) سورة الروم، آية 56

لكنه يحب أن يراه بعدها غير متخلف عن صـفوف الصـناعة والإنتاج، يريد مولانا العظيم أن يكون عبده شخصية مؤمنة عالمة، عاملة، يريده صاحب اليد العليا، فبذلك فقط ستكون كلمة الله هي العليا.

إن الله يحب أن يتقن عبده فقه الوضوء والصلاة، ويحبه كذلك إذا كان يجيد تحلية ومعالجة المياه، وإصـلاح سـخان الماء، وتركيب الكهرباء، وبرمجة الحاسـوب، وزراعة النبات، وخياطة الثياب، وصـناعة المعدات. فديننا هو دين تسبيح وإنتاج، وصلاة وعمران.

كيف سنكون خير أمة أخرجت للناس ... ونحن لا نخرج للعالم بشـيء جديد؟ وكيف سـتكون كلمة الله هي العليا وأيادينا في كل شيء هي السفلى؟

- وأما الثنائية الثانثة: (الَّذِينَ آمَنُوا ... وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

لا توجد –على حد علمي- آية في القرآن الكريم، تكتفي بنداء المؤمنين دون أن يليها أمر بفعل، أو نهي عن منكر، وكأن في هذا إشـارة إلى أن الايمان لا يكفي، ولا يغني العبد إن لم يكن معه عمل صالح، ولأجل هذا السـبب نجد الله يذم إيمانا لا ينعكس على صـاحبه في أسـلوب عيش صـحي وصـحيح، قال تعالى (قل بئسـما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين)[3]. فالإيمان وجهة طيبة، والعمل الصالح أقدام السير إليها.

علينا أن نزيل من أذهاننا وهم الأفضلية على الغير، بمجرد الانضمام إلى منظومة الإيمان، فالله لا ينظر إلى الهوية الجامدة، ولا يعطي الألقاب إلا لمن عمل بمقتضياتها. لأنه سبحانه لا يريد منا مجرد النطق بالفضائل، بل يريد منا معه الصدق بامتثالها.

[3]) سورة البقرة، آية 93

سـيستقيم حالنا (05)
(إذا لم تكن الغاية ... تبرر الوسيلة)

في ظل ســعينا في هذه الحياة، غالبا ما نحيك حكايات نبرّر بها أفعالنا الخاطئة، فنلوّن أخطاءنا بألوان من الأعذار، ونرتدي بها قناع الفضــيلة لتبرير الرذيلة، ولربما لو أننا اعترفنا بعدم صــواب أفعالنا حال اقترافها، لكان ذلك أســلم، فالأخطر من الخطأ، هو أن نُلبســه ثوب الصــواب ونحاول إخراجه للناس على هيئة اللا-حرج من فعله.

- انظر إلى من يسـرق ظالما . .بحجّة الانتقام للمظلومين.
- وتأمل إلى من يغشّ في امتحانه ..لـ "يُسعد والديه".
- وغيره يزور سيرته الذاتية.. لأنه يرى نفسه "أهل" لتلك الوظيفة
- وذاك يشاهد المواقع الإباحية من باب التعلم.
- وغيرهم يخرج من العمل باكرا .. ليلحق بصلاة الجماعة
- وهذا يستخرج "شهادة طبية" ليبرر غيابه من غير مرض
- وهذا لا يسدد ديون الدولة بحجة أن الدولة لم تقدم له شيئا
- وهذه تُصَفح بناتها بالسحر...خوفا عليهن من الاغتصاب
- وهذه تلجأ أيضا للسحر.. لإبطال سحر آخر

هكذا دائما ما نقدم أعذار هي في الحقيقة أقبح من الذنب ذاته، نحاول أن نعيش وهم أن الغاية الجميلة قد تشـفع لقبح الوسـيلة، وكأن القبح في الوسيلة سيتحول فجأة إلى جمال، لأن الغاية من أجله شريفة ونبيلة. أو كما تنص عليه النظرية الميكيافيلية[4].

[4]) هذا المبدأ الذي تبناه نيكولو مياكافيلي المفكر والفيلسوف والسياسي الإيطالي في القرن السادس عشر، حيث يعتقد أن صاحب الهدف باستطاعته أن يستخدم الوسيلة التي يريدها أيا كانت وكيفما كانت دون قيود أو شروط

ففي كل يوم، نواجه مواقف حياتية تختبر ضمائرنا، قد نجد أنفسنا أمام طريقين: طريق مستقيم لكنه صعب، وطريق ملتوي سهل. وهنا يكمن التحدي الحقيقي: هل سنختار الطريق السهل " الملتوي" ونبرره بجمال الغاية، أم نثبت على الطريق الوعر "النقي" مهما كانت متاعبه؟

فأيها المسلم، ويا أيها المواطن، إن الوسيلة ليست مجرد جسر نمرّ عليه للوصول إلى الغاية، بل هي جزء أصيل من الغاية نفسها. فإذا كانت الوسيلة فاسدة، فاعلم وكن على يقين بأن الغاية ستكون فاسدة.

لنستيقظ من غفلتنا، علينا ألا نختصر الجمال في نقطة الوصول، فالغاية ليست هدفا نصل إليه بأي ثمن، بل هي طريق نمشيه بكل تفاصيله، بكل أركانه وشروطه، فلنزرع الحلال في كل خطوة، والنقاء في كل اختيار.

قال الله تعالى: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ)،[5] هذه الآية تلخص فلسفة الطريق النقي، فالله عز وجل جعل النقاء في العمل شرطا لقبول النتيجة. فالله طيب لا يقبل إلا طيبا وجميل يحب الجمال.

أيها الأعزاء: إن الغاية "لا تبرر" الوسيلة، بل الوسيلة هي التي تعطي الغاية معناها وقيمتها، فليس المهم فقط أن نصل إلى غاياتنا، بل أن نسلك طريقها المشروع، طريقها الحلال المحلل الذي يرتضيه الله، فنصل إليها بقلوب مطمئنة وضمائر مرتاحة.

فلننتفض على الوسائل الملتوية مهما كانت غايتنا، ولنقل لأنفسنا:
"إن كانت الوسيلة طاهرة، فستحمل الغاية طُهرا مضاعفًا".

[5]) سورة التوبة، آية 109، 110

سـيستقيم حالنا (06)
(إذا انتبهنا لأفخاخ الشيطان)

من أركان إيماننا الجميل، ركن الغيب، أن نؤمن بأشياء نستشعر أثرها ولا تراها أعيننا. ومن هذه الغيبيات هو عدو الإنسانية الأكبر: الشيطان ذاك المخلوق الذي أبى إلا أن يأخذ معه العدد الأكبر من الرفقاء إلى نار الجحيم وبئس المصير.

هذا المخلوق، لن يأتي بهيئة الكائن الشـــرير، الذي تدركه الأبصار فتُميز بشاعة وجهه، بل سيأتي كما تأتيك النصيحة من محب، سيأتي والقسم يؤازر نصـائحة، فيزنن للناس أعمالا سـيئة، فيحملونها بأيادي الاطمئنان، ظانين فيها النجاة، وفيها عين الهلاك.

فأسوأ من المعصية الظاهرة، هو طاعة ... وهمية

إن للشيطان أبوابا غير مخيفة ينشـــرح لها الصدر، فظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قِبَله العذاب، أبوابه لا يرى حقيقة عناوينها سوى من طلب من الله الرشد والبصيرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

- **فخ اللعب على الأولويات:**

لن يدعوك الشيطان لترك الصلاة، بل سيدعوك للصلاة وقت العمل، لن يدعوك لإهمال أهلك، بل سيملأ وقتك بخدمة الناس على حساب أهلك وزوجتك وأطفالك، ولن يأمرك بعدم التصدق على الأقربين، بل سيذكرك بكل فقراء المدينة ما عدا أقاربك. سيملأ ذهنك بهموم الأمة والرغبة في إصلاحها، لكنه سيعميك عن إصلاح المشاكل المنزلية. سيزرع في قلبك حب الخلوة والاعتكاف في المســـاجد، ليقتل فيك روح الجماعة وإعمار الأرض وطلب الرزق والوظيفة.

لن يأمرك بالشـــر، بل سيخبرك عن خير حسن لكنه خير يبعدك عن الخير الأحســن، وســيأمرك بالطاعة المهمة التي ســتلهيك عن الطاعة الأهم. ســيلعب فقط في أولويات حياتك، ســيغر ترتيبها، فيضــع المهم مكان الأهم، وغير الضروري مكان المستعجل.

- **فخ ترك الحسن بسبب القبيح (أو فخ: إما هذا أو ذاك)**

إنه الفخ الذي يلبس ثوب "المنطق"، فعند المعصية، سيشعرك شيطانك بالذنب وتأنيب الضــمير، لكنه لن يشــجعك على الرجوع والتغيير، لن يذكرك برحمة الله وسعته، بل سيلومك عن تناقضك، سيخبرك أنك بعيد عن "الانسجام"، سيخبرك أن هذه المعاصي لا تليق بمن يصلي، لكنه لن ينصــحك بترك المعصــية، بل ســيدعوك مؤقتا لترك الصــلاة، لأنها لا تليق بأهل المعاصي في حين كان يجب ترك المعاصي لأنها لا تليق بأبطال الصلاة. إنها حيلته في الدعوة لترك الحسن بسبب القبيح.

فكم من فتاة تركت الحجاب، لأنها زاغت بها الغريزة وأخطأت يوما، فأيقض الشــيطان ضــميرها، وأشــعرها بالتناقض بين حجابها وفعلها، ثم قدم لها الحل الرشيد: "نزع الحجاب ريثما يستوي ظاهرها مع باطنها"، وكم من مصــل ترك الصــلاة بســبب التدخين، لأنه وعده بالرجوع إليها حينما يفارق التدخين، فترك هذا الصــلاة ونزعت تلك الحجاب. ووقع كليهما في فخ " إما هذا هذا وإما ذاك"، إما أن تكون نقيا خالصا، أو لا تقترب من الأســاس، بينما الله لم يرد يوما عباد خالصــين منذ اللحظة الأولى، بل يحب رحلة المجاهدة، والاستغفار.

هذا هو فخ المنطق المزيف، الذي يوهمك أن الابتعاد عن الفضــيلة والطاعة هو احترام لها، ريثما نمتلك نحن قوامها.

- **فخ الحب المفصول عن الهيبة**

(لا تعبد الله خوفا من ناره، بل أعبد الله حبا فيه)

هي جملة وجدانية فخمة، يبدو عليها سـمة التعمق والذوق، لكنها في الحقيقة سوء فهم، لطبيعة النفس البشـرية أولا، وتعاليم الله ثانيا.

وقد كنت أحد ضـحايا هذا الفخ، فكانت مناجاتي بعد المعصـية: (اللهم إني لا أريد أن أطيعك خوفا من عقابك، بل أريد طاعتك حبا فيك)، وكأن الهيبة ... من نواقض المحبة وليست من أدلتها. (ويا للوهم)

ورغم جمال هذه المناجاة، لكن ما ازددت معها إلا عصـــيانا وتماديا، والسبب؟ هو أنني لم أخف.

إن قلب الانسان لا ينضبط إلا إذا أحب الله وخافه، بل يمكن القول أن الحب لا يكتمل بهاؤه في القلب وهو ... مجرد من .. صرامة الهيبة.

فما قيمة أن تحبني ثم تعصيني؟ وما أجمل أن تحبني وتخاف زعلي

إن أقرب الطرق إلى الله تعالى هي نفسه، وبرجوعنا لبوحه سبحانه وتعاليمه لنا، سنراه يمدح صفوة عباده الذين جمعوا بين الخوف والرجاء، وآمنوا بصفات الجمال وصفات الجلال، فقال تعالى عنهم: (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)[6].

هذا هو التوازن الذي يرتضيه الله لعباده

فقف وتأمل، هل كان الشـيطان يكره الله؟ لا، بل كان عاشـقا ولكن بلا خ شية، أحب ولم يطع، سمع ولم ي ستجب، وهذا ما أراد أن يورثه لبني الانسان من بعده، ضمن بوابة (طاعة الحب).

[6]) سورة الإسراء، آية 57

سـيستقيم حالنا (07)
(إذا أخذنا من موقد السلف، الجمر بدل الرماد)

أظن أنه من الخطأ والله أعلم، أن يتسـمى بعض المتدينين من أهل زماننا بالسلفيين، ولو أنهم يعنون بذلك السير على نهج السلف، إلا أنهم يبقون في الأخير خلف.
وليت الأمر توقف في أخذ اللقلب وفقط، بل تعدى إلى أخذ كل شيء من الموقد، فأخذوا الجمر ومعه الرماد، والمؤسف في الأمر هو كثرة الرماد

أي نعم، جميل أن نرجع إلى السلف لنأخذ وننطلق، لا لنبقى ونلتصق جميل أن نأخذ من موقد السلف، الجمر المشتعل وليس الرماد المنطفئ، أن نأخذ الفكرة والمنهج التي لا تزال متقدة ولم تمت فاعليتها، وليس أن نأخذ الأفكار الميتة والمميتة.

إن الجمرة التي يجب أن تؤخذ من موقد السـلف، هي جذوة الإخلاص وعلو الهمة، وسـعة الصـدر، وتوقد الفهم، وجرأة الموقف، والصـدع بالحق، والجدية في طلب العلم، الجمرة المطلوبة هي أن نسـتلهم لا أن نستنسخ، هي أن نواجه زماننا بأدواتنا كما واجهوا هم زمانهم بأداوتهم.

فليس الوفاء للسـلف بأن نتجمد على آثار أقدامهم وأقوالهم وظروفهم، ولا نحرك أو نتحرك، إنما المطلوب أن نصنع خلفا يضاهون حتى السلف في خيريتهم واجتهادهم مع حفظ الود والتبجيل لمن سبق.

أي نعم، هم آباؤنا، وأجدادنا، وعلماؤنا ورجال ديننا وجبالنا الشـاهقة، وهم من سـبقونا بالإيمان وأوصـلوا الدين لنا، ولهم منا كامل الامتنان والتبجيل -بعد الله تعالى-ولكن، ليس كل التقديس.

سـيستقيم حالنا (08)
(إذا عشنا الواقع ... أونلاين)

"العيش أولاين"، يعني: فقه الواقع أو حضور الانسان في زمنه
وعكسه: "العيش أوفلاين"، أو الأمية بمستجدات الحياة والواقع

إن القطيعة مع الواقع والزهد في معرفة مستجداته، ليس ورعا ولا زهدا محمودا، بل هو رهبانية مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، ولو كانت من فقه التعبد لما سبق لها أحد نبينا محمد عليه السلام، الذي نزل إلى واقع الناس، وتقرب من مشاكلهم العصرية وساهم في حلها ونقاشها.

إن المسلم الذي لا يتابع مجريات عصـــره، ولا يدري ما يدور حوله، هو حاضر غائب، وحي ميت ، لا يعرف مشاكل وطنه وأمته، بل وربما هموم أهله وعائلته. فهو معهم لكنه غير موجود.

ونحن هنا لا نطالب أن يُلم المسلم بكل شاردة وواردة، ولا أن يغوص في تفاصيل السياسة والاقتصاد، إنما أن يتحلى بما يكفي من الوعي ليفهم زمانه ومستجداته.
إن فقه الواقع لا يعني فقط أن نفهم ما يحدث، بل أن نعرف كيف يكون موقفنا تجاه ما يحدث، فلا نكون كالأطرش في زفة الأحداث.

إن الانفتاح على العالم إلكترونيا، زاد الحجة علينا، فلم يعد لنا عذر في جهل وعدم اطلاع، بل كل جهل فينا، ما هو الا عدم اكتراث منا.

فما أسـوأ أن يصـفك أحدهم بأنك خارج الكون وعلى هامش الواقع أو أنك ميت على قيد الحياة، وما أجمل أن تكون مسلما يعي ما يحدث في عالمه، وما يدور حوله، وما يهدد أمنه، وما يُقلق أمته وما يحفظ عائلته

إن الانســـحاب من واجهة الحياة، ليس ورعا ولا تقوى، بل هو أزمة وبلوى، وترك أســـئلة الزمان وتحديات الواقع لغيرنا ليتفنن في حلها بدلا عنا، فهذا لا يُرضي الرب ولا ينفع العبد. وليس من الدين في شيء.

وها نحن اليوم مثلا، لا نعرف لماذا تنهار ســوريا وتهدم اليمن وينقســم الســـودان وتباد غزة ويحارب الإســـلام، صرنا لا نجيد فهم حتى أبناءنا وتفكيرهم، لماذا كرهوا الدراسة وتركوا المساجد وأحبوا المشاهير.

صرنا لا نعرف من يكون عدونا ومن هو حقا صـــديقنا، لا نعرف مبادئ العيش، ماذا نفعل وماذا نترك، نعيش للصـــدف، مرة مع هؤلاء ثم لا نلبث حتى نكون مع أولئك .. فلا بوصلة توجهنا ولا تنور.

لا نعرف رئيس بلديتنا ولا والي الولاية ولا وزراء القطاعات، لا نعرف مستجدات المشاريع السكنية، ولا القرارات الرئاسية، لا نتصفح مواقع وزارات السكن ولا الصحة ولا البريد ولا التربية ولا الشؤون الدينية.

نعيش الصـــراعات مع إخواننا بأنواعها، دينية وعرقية، ولكن لا نعرف أسبابها ولا كيفية النجاة منها، فطال بقاؤها.

كل هذا بسبب عيشنا أوفلاين، خارج الأحداث، وداخل الأجداث، نتأثر ولا نؤثر، نُضـــرب ولا نعرف بماذا ندافع، وإن دافعنا وانفعلنا فبوسائل ومفاهيم قد عفا عنها الزمن ورثاها الدهر.

نحن في عام 2025، فعلينا أن نعرف ما هي متطلبات وتحديات 2025، ما هي التغيرات الملحوظة وما هي المهارات المطلوبة. علينا أن نتعلم فن (مواكبة الواقع) بطريقة صحية، فإن فعلنا فلا خوف علينا وقتها ولا وهم يحزنون.

سـيستقيم حالنا (09)
(إذا استفهمنا عن الآثار الجانبية قبل أن نستهلك)

رأيت في أحد مقاطع الفيديو، تجربة في بلد أجنبي حول تأثير موجات الوايفاي على نمو النباتات، إذ أنهم قاموا بعمل دراسة واكتشفوا بأن هذه الموجات لها تأثيرات جانبية على النبات والانسان.

ولست هنا من أجل إثبات الدراسة أو تفنيدها، بقدر ما أود التنويه لإعجابي باهتمام ووعي هؤلاء الناس بالاطلاع والتساؤل على الأعراض والآثار الجانبية لأي شيء يعرض للاستهلاك. فكأنهم لا يفتحون بابا جديدا في الحياة حتى يتساءلون: مالذي ينتظرنا خلفه؟
بينما نحن ولشديد من الأسف، نكتفي بالحصول، وكأن الاستهلاك " خاصة التكنولوجي" فعل مقدس لا يُساءل، فأن يكون عندك وايفاي في منزلك فتلك العافية والدواء مهما كان خلفها من الداء، بل إن كل الداء في فقدان نعمة " الوايفاي".

لماذا نحن نشتري أي شيء من السوبرماركت دون أن نقرأ مكوناته؟ لماذا نشرب دواء صداع الرأس (باراسيتامول) دون أن نقرأ أعراضه الجانبية، لماذا نستخدم الهاتف طوال اليوم دون أن نبحث عن أضرار ذلك، لماذا نستخدم الفيسبوك لعقود وليس فقط لسنوات، دون أن نبحث في ماهيته ومن يستخدم بياناتنا فيه ولصالح من؟

متى سندرك أن ما نستهلكه، قد يستهلكنا بشراهة أكبر، وما نعيش فيه قد يقتلنا دون أن نشعر؟ لماذا أنفسنا صارت رخيسة علينا لهذا الحد رغم أننا ندفع المال والوجود؟ لماذا لا نتعامل بعزة مع ما نستهلكه؟ لماذا لا نقرأ ونحلل ونفحص ونشترط قبل أن نشتري أو ننخرط؟

سـيستقيم حالنا (10)
(إذا لم نستح مما لا يُستحى منه)

إن من غريب ومفارقات هذا الزمان، أن نرى كثيرا من النخبة والناس الطيبين، الذين مازالت أياديهم نظيفة، وقلوبهم منشـغلة بإصـلاح الانسـان، يخجلون بمشـاريعهم من الظهور، فتراهم يقدمون أفكارهم القيمة ومشاريعهم على استحياء وبأياد وقلوب مرتجفة.

وفي المقابل، نرى أهل الباطل والتفاهات، يملكون شـجاعة في تقديم محتواهم، يتقدمون والثقة تملأ ملامحهم، رغم أن ما يقدمونه كان هو الأجدر بالاستحياء والخجل.

إننا نعيش اليوم أزمة اختلال في توزيع الثقة، بين من يسـتحقها ومن لا يستحقها، بين من أفلتها من بين يديه، وبين من عض عليها بالنواجد.

وما أبرئ نفسـي في هذا، فكم من مرة حال الخجل بيني وبين مبادرات الخير، كم من مرة حملت الأفكار الصـالحة والمصـلحة للمجتمع بأياد مرتجفة وقلب خجول. كم من مرة خطوتُ خطوة للأمام وعشر خطوات للخلف، كم ترددت واستحييت، رغم أنني لا أحمل العيب ولا ما يعاب.

فيا حامل الخير والنور، قد آن الوقت ليفتخر الطيبيون ويتقدمون، وأن يخجل من يسـتحق عملهم الخجل وينسـحبون، إن خجل الأخيار ليس فضـيلة وتواضـعا، بل تضـييع للأمانة، وإن صـمتي وصـمتك، وترددي وترددك، هو خيانة وإن ألبسـناها ألف عذر، فلا تسـتح مما لا يُسـتحى منه، ولا تخجل مادام فعلك لا يدعو للخجل، بل تقدم وتذكر وصية الله لموسى وفرعون عليهما السلام: (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

سـيستقيم حالنا (11)
(إذا استمتعنا بالرحلة قبل الوصول)

إن كل ساع في الطريق متذمر، يرى في سعية المشقة ولا تبصر عيناه من تفاصيل الرحلة شيئا سوى محطة الوصول. فلا استمتاع يُصاحب الرحلة ولا دروسا تؤخذ من السقطات والمحطات فيها.
فكم من محطة نجاح وصـــلناها، لكن عند سردنا للحكاية، فإننا غالبا لا نحكي عن محطة الوصول، بل عن رحلتنا ومشقة الطريق لبلوغها.

وإن أردت التأكد، فا سأل أباك عن أمك، ستراه يخبرك عن م شقة الظفر بها وليس عن يوم الزواج بها، ا سأله عن درا سته، فسيخبرك عن الأيادي الباردة أثناء الذهاب للممدرسة بثياب قليلة، وعن الـشموع التي أنارت ليله يوم لم تكن فيه إنارة وكهرباء، ولن يحدثك عن الشـــهادة التي ظفر بها في الأخير، اسأله عن منزلكم، فسيخبرك عن الطوب الأول الذي وضعه والجهد الذي بذله، وليس عن المفاتيح.

اسـأل مثلا المجاهدين في الجزائر عن الاسـتقلال، سـتراهم لا يحكون عن لحظة الاستقلال وبيان إعلانه، بل سيسردون لك رحلة الكفاح والعذاب.

ا سأل طلاب الطب في الجامعات الجزائرية، سيفتخرون بالسبع سنوات الطوال، والليالي البيضـاء، وهالات الأعين السـوداء. ولن يحدثك أحدهم عن شهادة الدكتوراه.

إنها كلها حكايا وقصص عن جماليات (رحلة السعي)، الذي لا نعترف به ولا نســتشــعر حلاوته إلا لحظة الوصــول، والغريب أننا عند وصــولنا للمحطة المنشودة، سيصيبنا الحنين إلى تلك الأيام الخوالي، إلى اللحظات

والذكريات التي كانت ونحن نسعى، وكأن السعي ورحلته هما ما يستحق التأمل، هما ما يستحق أن يعاش، وليس نقطة الوصول.

فمن قلب الموازين في حياتنا، وعلق قلوبنا بالنتيجة وأعمى أبصارنا وأرواحنا عن الطريق؟ من الذي جعلنا نعيش الحاضر وكأنه وقت ضائع ولا خير ولا فخر إلا في الوصول؟

إن الحياة ليست سباقا لخط النهاية، بل رحلة تعاش بكل تجاربها، فتَحتَ كل تجربة درسا، لا يبصره إلا من فهم خطة الطريق، ولن يستمتع به إلا من فهم رسائل السعي ومحطاته ودروسه.

أيها الساعي، أنظر وتأمل إلى قول الله تعالى: (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ[7])، نعم " إلا ما سعى " وليس " إلا ما بلغ "، فالخير كَله في الرحلة، الخير كله في دروسها وتفاصيلها. الرحلة هي ما سيملأ الذاكرة بذكرياتها. والسعي هو الامتلاء الحقيقي بالحياة.

أعجبني محمود أبو عادي حين قال في بودكاست (النفس البشرية في زمن التحولات)، بأنه يكره ا ستعمال خرائط (Google Map) أثناء سيره في الطريق، لأنها تلهيه وتسرق عينيه عن تفا صيل الطريق ومعالمه، فكل نظرة للخريطة هي حرمان من رؤية الشجرة والمنزل والمتحف والسوق وناس المدينة وكل المعالم الأثرية.

فلا يجب أن ننظر لرحلة السعي على أنها وقت ضائع بين نقطتين (البداية والنهاية أو الانطلاق والوصول) بل إن الطريق هو جزء من الغاية ذاتها، له سره، ودرسه، ودهشته

[7]) سورة النجم، آية 39

سـيستقيم حالنا (12)
(إذا استحضرنا.. أننا قد نموت في أي لحظة)

قد نموت في أي لحظة ..
إنها الحقيقة التي يعرفها الجميع، ويتجاهلها الجميع ..

وقد انتبه نبينا محمد عليه السلام لفلسفة الموت، فقال ببديع النصح: (إذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وإذا أمسيْتَ فلا تنتظرِ الصّباحَ)[8]. إنها تنبيه منه على أن الغروب قد يحل علينا ونحن في عز الصباح، والموت قد يتخطفنا ونحن في عز اليقضة والنشاط.

إن هذا التذكير بالموت في النصوص الدينية لم يكن دعوة لليأس، بل دعوة للحياة العميقة، فالموت، رغم قسوته الظاهرة، هو أكبر محفّز لنعيش الحياة كما يجب أن تُعاش. فليس القصد هو أن نعيش بذعر الموت، بل أن نعيش بوعي الحياة، قال الصديق رضي الله عنه:
(اطلبوا الموت، توهب لكم الحياة).

إن هذه الحقيقة الوجودية من المفروض أن تدفعنا إلى اختزال الطريق نحو الفعل الأخلاقي، فلا نتشبث بالخلافات الصغيرة، ولا نستغرق في النزاعات التافهة، ولا نؤجل الاعتذار والغفران، ولن نتجاهل ابتسامة أبناءنا، ولا حزن أزواجنا.
فالذين يعيشون وهم يضعون احتمال الرحيل في أي لحظة، هم الذين يتركون الأثر الجميل، لأنهم لا يخططون لكيفية العيش، بقدر ما يخططون.. لكيفية الرحيل.

[8]) أخرجه البخاري، رقم 6416

سـيستقيم حالنا (13)
(إذا جهزنا إجابات عملية، لأسئلة القبر النظرية)

في عُرف الامتحانات الدراسية، الاختبار الذي تُعرف أسئلته مسبقا وتطول مدة التحضير له، هو أكثر الامتحانات صعوبة، وكل اختبار يُسمح فيه بفتح الكتب والمراجع، فإن ذلك يوحي بأن الجواب لن يكون في الكتاب بل في توظيف ما في الكتاب من أجل الجواب.

هكذا بالذات ستكون أسئلة القبر الثلاث[9]، معلومة مسبقا، وصعبة في وقتها، لأنها لن تكون إجابات من وحي الحفظ والذاكرة، بل إجابات من وحي العمل والامتثال.

كلنا تربينا على حديث أسئلة القبر الثلاث، من ربك؟ من الرسول الذي أرسل فيكم؟ وما دينك؟ وتلقينا معها إجاباتها التلقينية الجاهزة المعلبة، ربي الله، ديني الإسلام، ورسولي محمد عليه السلام.

ولكن في هذه الحياة، كم رأينا وشهدنا وسمعنا، استصعاب نطق الشهادتين لحظة احتضار الناس وتوديعهم للحياة، إذ يتلفظون بكل ما سواها، أما هي، فمع وجود من يُعينهم على نطقها، فإنها تأبى الخروج.

فلماذا أبت هذه الكلمة –الشهادتين- الخروج؟ هل خانته الذاكرة، أم أن السائل –الملاك- لا ينتظر إجابات اللسان، بل إجابات الحياة والعادات؟
لا ينتظر إجابات ما نموت عليه بل إجابات ما عشنا به؟
فكيف نجهز إجابات عملية لهذه الأسئلة المصيرية؟

---

[9]) قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وذكَر قَبْضَ رُوحِ المُؤمِنِ فقال: (يأتيه آتٍ، يعني في قَبْرِه، فيقولُ: مَن رَبُّكَ؟ وما دِينُكَ؟ ومَن نَبِيُّكَ؟يقولُ: ربِّيَ اللهُ، ودِيني الإســـلامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمق.....فيُقالُ له: صدَقْتَ.)/ رواه البخاري 1369

- النجاة من السؤال الأول: (من ربك)؟

يمكننا طرح السؤال بصيغة أخرى وهي: من كان سيد قلبك؟ من الذي سجدت لتعاليمه في الحياة قبل الصلاة؟
إن (لا إله إلا الله) هي أكثر كلمة تميزنا نحن المسلمين، لكنها للأسف لا تُعاش، نلفظها ولا نحياها، وصلتنا قولا، ولا ندري من غيبها فعلا. فصارت كلمة تقال عند الدخول في الدين، أو لحظة الخروج من الدنيا.

نعم، قد وصلتنا لا إله إلا الله بفضل الله ثم أنبياءه والصالحون من عباده، ولكن هل أوصلتنا هذه الكلمة حيث أوصلت هؤلاء؟

هل هزمنا بـ (لا إله إلا الله) طواغيت زماننا كما هزم بها بلال بن رباح جلاده قبل أن يُهزم جِلده؟ وكما استقوى بها آل ياسر؟ هل شدت هذه الكلمة وثاقنا بربنا، فرأيناه سبحانه هو السيد الوحيد؟ أم أننا نرتجف أمام كل خوف وننحني أمام كل سُلطة؟ ونبيع أرواحنا للقلق أمام كل ضيق؟ ونعطي الطاعة والسمع لكل ما هو من غربي وأجنبي؟

إن أمثال بلال بن رباح وآل ياسر، وأبي ذر الغفاري والإمام أحمد وابن تيمية وسيد قطب والعربي بن مهيدي والبشير الإبراهيمي وأمثالهم، هم الموحدون حقا، هم الذين قالوها فصدقوا، فتجلى عليهم "البعد الأمني" لكلمة التوحيد، فسُدَّت في قلوبهم كل منافذ الخوف والأذى.

إن مثل هؤلاء، إن سألتهم عن سر شجاعتهم، قالوا: "معية الله لنا، تقتل خوفنا". إن هدّدتهم ابتسموا، وإن أخفتهم ضحكوا، وإن أهنتهم عزّوا، وإن قتلتهم استشهدوا. قُوَتهم الضاربة " الله أكبر"، وضربتهم القاضية "حسبنا الله". فهؤلاء "الأحرار" عاشوا على تقليم غابة حياتهم من الآلهة المزيفة، فلم يعترفوا بعد الله سبحانه بشيء اسمه (آلهة الأرض).

إننا مطالبون بإعادة اكتشـــاف معنى "لا إله إلا الله" وفق ما تقتضـــيه أصنام زماننا، تلك الأصنام التي لا تكســـــرها فأس إبراهيم الخليل ولا عصا موسى الكليم، عليهما من الله أزكى التسليم.

إن أصـــنام زماننا لم تعد تبدو في هيئة تمثال يُنصـــب في الســـاحات، بل ولجت إلى العقول والأفئدة، وتجلت في ســـلســـلة القناعات والمرجعيات. فتارة نحن عبيد المذهب، وتارة عبيد الســـلطان ومدراء العمل، وتارة عبيد المجتمع وآراء الناس، وأحيانا كثيرة نحن عبيد الغرب وقيمه، وكم هي المواقف التي انهزمت فيها -وأقولها بكل أسى- تعاليم الله أمام تعاليم الشيطان، فانتصـرنا للشيطان بدل أن نكون أوفياء لرب العالمين.

لقد أبدع الداعية "أسامة الشـرفا" حين قال: (إن المتأمل في الآذان سيجد أن كلمة " الله أكبر" تتكرر أربع مرات، لتأتي بعدها " أشـــهد ألا إله إلا الله "، وكأنها رســـالة مفادها أن كلمة التوحيد لن تتجلى أسرارها ولن تُلمس آثارها، إلا لمن ينظر إلى العالم بعين ترى أن ... يد الله فوق كل شيء. أي نعم: فوق كل شيء

إن التحدي اليوم والصـــراع، ليس بين إيمان وإلحاد علني، بل هو تحدي " المكانة في القلوب "، المعركة الحقيقية اليوم، هي بين من يجعل الله فوق كل شيء، وبين من يجعل شيئا أعلى مكانة من الله .. في قلبه.

** فلا إله إلا الله ... يعني ثورة في القلب عن كل ما سوى الله.
** لا إله إلا الله ... يعني لا طاعة تُقدَّم على طاعته.
** لا إله إلا الله ... يعني لا غاية أسمى من رضاه.
** لا إله إلا الله ...يعني أن نحيا بقيمه هو دون سواه.

وبهذا ، ستكون (لا إله إلا الله) مسك ختام وداع الدنيا.

- النجاة من السؤال الثاني: (ما دينك)؟

إن السائل لهذا السؤال، لا يسألك في الحقيقة عن اسم الديانة، بل عن منهج وسلوك وقيم وأخلاق وطريقة حياة، هو في الحقيقة لا يسألك أنت عن الإسلام، بل يسأل الإسلام عنك، فجواب الإسلام ووجهة نظره عنك، هي من سيحدد ما سينطق به لسانك.

إن جوهر السؤال سيكون عن مدى تحقق المعنى اللغوي والعقائدي للكلمة، هل سلمت قلبك لله فتلقى تعاليمه وأقداره بصدر رحب؟ هل سلمت جسدك لله، هل سلمت وقتك، عقلك، وكل كيانك وحياتك؟ هل سلم الناس من لسانك ويدك؟ هل أمن جارك بوائقك؟

إن هناك فرقا بين أن تجيب: إن الإسلام يدعوا إلى الصدق والرحمة والاتقان والسلم، وبين أن يكون الجواب: إني كنت صادقا محسنا رحيما، صانعا للسلم، ومتقنا للعمل...لأنني كنت مسلما.

- النجاة من السؤال الثالث: (من نبيك)؟

ها نحن مســـلمون، ننطق الشـــهادة دون خوف، ونقرأ القرآن دون اضطهاد، ونركع دون أن تسلط علينا السياط، والحمد لله ... ولكن:

كيف أســـلمنا؟ ومن أوصـــل لنا هذا الدين؟ ومن الذي حمل هذا النور فأ ضاء به مشارق الأرض ومغاربها؟ من هذا الذي حمل هم آخرتنا قبل أن نولد، وتحمل وحي السماء وتكاليفها، فحمل هذه الرسالة على جراح كتفيه وعبر بها صحاري الشرك والتكذيب والأذى؟

إنه محمد بن عبد الله، صلى عليه الله

إن مشكلتنا اليوم، هي جهلنا بقصة رسول هذا الدين، وكيف مضت تلك الـ 23 سنة من حياته وهو يصارع شر خلق الله، ليصل عبير هذه الرسالة لكل روح كتب الله لها الوجود، وهذا كله مقابل ماذا؟ مقابل (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[10].

لم يكن هم هذا الرجل النبيل أن يصل، بل أن نصل، ولا أن يعرف هو بل أن نعرف نحن من هو ربنا، فقد كان بإمكان هذا الشهم أن يعيش كأهل مكة، لا ينقصه شيئ، لكنه أبى إلا أن يكون بساط البشرية التي تمشي عليه إلى ربها. والشمعة التي تحرق نفسها ليبصر الناس.

إن كل ركعة نركعها، كان ثمنها السياط وسنى الجزور، وكل آية نرتلها كان ثمنها قتل الأحبة، وكل طمأنينة تدخل قلبك اليوم كان ثمنها أجساد قطعتها سيوف بدر وأحد، وكل دعاء ترفعه كان ثمنه صراخ في شعاب مكة

إن محمد عليه السلام، ليس مجرد اسم، بل هو القدوة الإنسانية الذي اختاره الله ليكون سيد النماذج، فأن يكون نبيك محمد، يعني أن تجعل سيرته هي القصة الأقوى حضورا، وسلوكه هو المنهج الذي ينبغي أن يُتبع، في البيوت والأسواق والمسجد ومكان العمل والحروب. فيستقر اسمه في ضميرك كقائد روحي، ومعلما تلجأ له إذا اختلف المعلمون.

أن يكون نبيك محمد، يعني أن تضع هدفا لك في الحياة أن تقرأ عن كل حياته، أن تتصفح كل ما كتبه المحبون عنه، عرب وعجم، سلف وخلف، ثم تبكى حيث بكى، وتحزن حيث ألمّ به الحزن، وتفرح حين انتصر، وتجاهد حيثما جاهد، ثم تدعوا له بالخير والوسيلة وبالمقام المحمود.

[10]) سورة الشعراء، آية 145

تأملات
في الوطن والمواطن

سـيستقيم حالنا (14)
(إذا تم بناء الانسان ... قبل تشييد العمران)

جميلة هي تلك المشـــاريع التي تنجزها الدولة لمواطنيها، من أجل أن يلقى هؤلاء المواطنون مكانا يحتوي مواهبهم التي وهبهم الله إياها، فتارة يُبنى المركز الثقافي وتارة مكتبات المطالعة في الولايات والبلديات، مسرح هنا وقصر مؤتمرات هناك.

لكن ما يلاحظه الزائر لهذه المراكز، هو خواؤها من البشـــر، خواؤها من الحياة، خواؤها من أهل اختصاصها أولا، ثم من الزائرين ثانيا.

فلأجل من بنيت هذه الصروح الثقافية؟

هذا من جانب الهجران والقطيعة، وأما عن جانب الافســـاد، فلا أدري صراحة لماذا يتم تكسير زجاج المؤسسات؟ وتخريب أجهزة الصـــــراف الآلي؟ لماذا تنتزع الشـــجرة من مكانها؟ وتطمس اللافتات من محتواها؟ لماذا لا تبقى الأشياء الجميلة على حالها إلا إذا ابتعد الانسان عنها ؟

تأمل البحار الصـــافية النظيفة، تأمل الغابات الجميلة، والمناظر الخلابة، ســتجدها في أماكن لم تصــلها يد الانســان بعد، أو صــعب عليه بلوغها، ولكن الســؤال الخنجر هو: لماذا حيث حضـــــرت يد الانســان (العربي خاصة) تجلى الفساد وأُتلف الجمال؟

تقول الحكمة: (إن الذي يشـــعر أنه لا قيمة له، لن يقيم وزنا لأي شيء من حوله) وها نحن أقمنا الحجارة والبنيان... وتركنا الانسان ينهار.

إنها أزمة العقول غير الناضــجة ...والقلوب التي فقدت حس الجمال ولم تفقه رسالة وقدسية المكان والأشياء.

إننا في الحقيقة أمام إنسان، لا يدرك دوره في الحياة، أمام إنسان يرى أن الصـــــراف الآلي هو ملك البلدية التي غضب منها، وليس وسيلته وهو وإخوانه المواطنين لإخراج النقود، نحن أما إنسان لا يشعر بالانتماء، ولا يرى في الحفاظ على الجمال تعبدا. نحن أمام مواطن مازال يرى أن الوطن يُخدم فقط من فوق، وليس من تحت.

هذه هي الإشكاليات، فما هي الحلول؟

إن الله تعالى لم يكتف بصناعة الانسان، بل سواه ونفخ فيه من روحه وهَداه، وكأنها إشـــارة إلى عدم جدوى الطين دون الحياة، ولا قيمة لبناء دون أرواح تسكنه.

ولأن القضية هي قضية تربية بالمقام الأول، فإن البداية والنهاية ستكون بالطفل، بتعليمه تقدير الجمال، وتعزيز شـــعوره بالمكان والانتماء، بتعليمه تصليح الأعطاب لا إعطاب المصالح، علينا أن نربيهم على ثقافة تجريم الإســـاءة لأملاك الدولة، وأن نزرع فيهم أن المكان المقدس ليس فقط المسجد، بل هو المدرسة والمكتبة والمؤسسة...وأن العبادة ليست في الصلاة والصوم فقط، بل هي كذلك إماطة الأذى، وصيانة المصالح.

(وعند بناء الانسان قبل العمران، ستضحك مبانينا من الفرح)

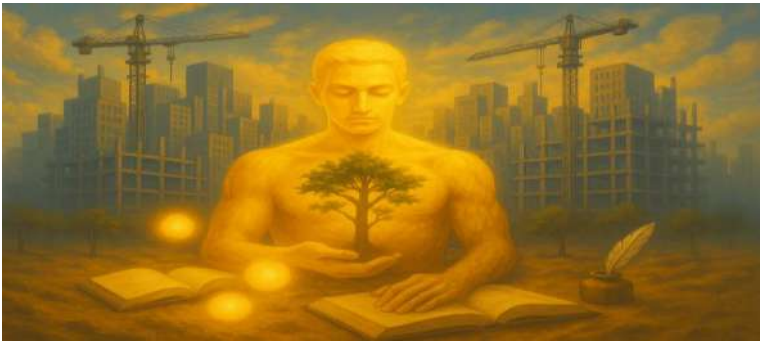

سـيستقيم حالنا (15)
(إذا كانت مساجدنا ثلاثية المهام)

جميل هو مصطلح ... (المسجدرسة)
والذي يعني أن يجمع المسجد بين نشاط المسجد الشعائري ووظيفة المدرسة العلمية والتربوية، وهذا أصلا ما كان عليه مسجد المسلمين أيام النبوة العطرة، بل أكثر من ذلك بكثير.

يقول علي شريعتي رحمة الله عليه: (إن المسجد الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، هو مؤسسة ذات ثلاثة أبعاد، بعد ديني فهو معبد، بعد تربوي فهو مدرسة، بعد سياسي فهو برمان، وكل الناس أعضاء فيه، فأصبح اليوم قصرا فخما ولكن لا أبعاد له).

وفي نظري، إن المسجد هو الفرصة المناسبة لصناعة الانسان، فهو المكان ربما الوحيد الذي يجتمع فيه الأب والابن، العامل والبطال، الظالم والمظلوم، المرأة والرجل، المثقف والعامي، والغني والفقير، الطبيب والمريض، فرسالة واحدة من الامام ستسمعها كل طوائف المجتمع.. فهو مكان تذوب فيه الطبقات أمام عدل الصلوات.

فالمسجد باختصار، هو المدرسة والمحكمة والمستشفى ودار الأيتام والجامعة وقاعة المؤتمرات. ولأجل هذا السبب، فأنا ضد فكرة فتح المساجد وقت الصلاة وغلقها بعد الانتهاء منها. فلا بد أن يكون بيت الله ملجأ كل مظلوم وباب كل سائل وأنيس كل مستوحش، ومعلم كل جاهل وطبيب كل سقيم وفرج كل مكروب وأستوديو كل محاور وميكروفون كل متسائل... وحائر.

سـيستقيم حالنا (16)
(إذا لم نفرق بين ديون الدولة، ودَين الشعب)

قد نوه لهذه الفكرة الكاتب المصـــــري فهمي هودي[11] في كتابه (أزمة الوعي الديني)، حيث عاب وانتقد الشخص الذي يفلتر ديونه، بمعنى أن هناك أشـــخاص عندما يكونون مدانين من طرف أشـــخاص، فإن الحيرة تغشـــى وجوههم، بينما لو كانوا مدانين من طرف أجهزة الدولة (وكالة الغاز والكهرباء، وكالة الماء ....الخ)، فإنك لا ترى منهم نفس الاهتمام.

وقد صدق في تأمله..

لماذا قد يقلقنا دين الناس القليل، ولا تقلقنا ديون الدولة الكبيرة؟ أين يكمن الفرق؟ أهي غياب المتابعة؟ أم أن الله ســـيحاســـب الناس على ديون الناس وســـيتغاضى عن دين الدولة (كهرباء، غاز، أنترنت، هاتف، قروض...)؟

إن ما هو أخطر من عدم الاكتراث لديون الدولة، هو ســـبب عدم الاكتراث ذاته، خاصة إذا حمل المواطن ذهنية (إن الدولة تســـرق، إنهم تقاسموا كعكة البلاد ....الخ)، فيبرر جرمه بجرم غيره. وهنا يمكن الخطر، حين تتم شرعنة أفاعلنا " شعبيا ".

وعليه، فإن حل هذه الأزمة يبدأ من اســـتعادة المعنى الأخلاقي للعقد المدني بين المواطن ووطنه. ومن إعادة تعريف الدولة في وجدان أبناءها، لا كخصم يجب التحايل عليه، بل كمؤسسة عظمى تدير أمور شعبها. فأي تقصير في واجبنا تجاهها، هو تقصير في حق بلدنا وإخواننا المواطنين.

---

[11]) كاتب وصحفي متخصص في شؤون العالم العربى والإسلامي، ويعد من أبرز المفكرين المعاصرين. انضم منذ 1976 إلى أسرة مجلة العربي الكويتية وأصبح مدير التحرير فيها.

سـيستقيم حالنا (17)

(إذا لم نسكت على حقوقنا التي ضمنها لنا القانون)

إنني على يقين تام بأن من أكبر م سببات الـ ضنك لدى المواطن الجزائري هي عدم وعيه بحقوقه التي يكفلها له الدســتور والقانون، ثم وإن هو علمها ووعاها، فإنه لا يطالب بها ولا يسعى لنيلها.

يسيء سائق سيارة الأجرة معاملتنا .. ونسكت ولا نشتكي
يأتي موظفوا الإدارة متأخرين ويماطلون... ونسكت ولا نشتكي
نركب حافلات السفر وهي غير نظيفة ومهترءة ... ولا نشتكي
نعمل ساعات إضافية، ثم يتأخر الراتب... فنسكت ولا نشتكي
ندفع أموالنا ولا نحـصل على خدماتنا، وإن حـصلنا عليها فليس بجودتها التي تساوي الثمن المدفوع... ونسكت ولا نشتكي
ينقطع الماء وتتذبذب الكهرباء، ثم ندفع... ولا نشتكي
تتأخر الإنجازات، ويماطلون في المعاملات، ولكن لا يلامون هم، بل نحن من يلام، لأننا سكتنا، ولم نطالب لا بتعويض ولا برد اعتبار
تنتهك حقوقنا أمامنا كل يوم، في النقل، في الصــحة، في الإدارات، في العمل... فنراها، ونتألم منها، لكننا لا يشتكي...

وعندما يطرح علينا الســؤال: لماذا لم تشــتك؟ فإننا نقف عاجزين عن الجواب، أو قد نجيب ونختبئ في شماعة " وما جدوى ذلك"؟

إن في كل مرفق من مرافق الدولة.. للمواطن حقوقا وضــعتها الدولة لتحمي مواطنيها من التجاوزات و سوء المعاملات التي قد يتعر ضون لها من بعض القائمين على هذه المرافق.
فلماذا لم نشتك؟

هل خفنا من العواقب والتبعات؟ لعل ذاك هو السـبب الذي لا نبوح به، وهذا ما حدث معي أنا بالذات، كم من مرة لم أشـتكي ولم أطالب بحقوقي التي أستحقها خوفا من عواقب ذلك..وتبعاته

إن سلوك الذين يسيؤون استخدام مناصبهم، ويسيؤون معاملة زبائنهم، لن تتحسن أخلاقهم بالمواعظ، إنما برفع الشكاوى ضدهم.

كم من تصرف سيء كان سيتوقف، لو أن مواطنا دخل للمسؤول واشتكى كم من حق كان سيسترد لو أن صاحبه كتب ورقة وطالب به.

ستصبح الحافلات نظيفة ومقاعدها سليمة، إذا اشتكى المواطنون
ستصبح الخدمات أسرع، والمعاملة أطيب، إذا اشتكى المواطنون
سيحترمنا الباعة كزبائن، إذا احترمنا نحن أنفسنا وأموالنا وأذواقنا أولا.

إن الأسوأ من الظلم، هو حين لا تلتفت لحقك وهو يناديك أن تستعيده، الأسـوأ من الظلم، هو عندما تكون هناك فرصـة لتصـحيحه ومحاربته، بينما تسلم له العنان، وترضى به تاركا حقك يتنعم به من لا يستحقون.

إن يوم يوم القيامة لا يقف الظالم وحده أمام الله، بل سـنقف سـويا، سيحاسب هو على ظلمنا، وسنحاسب نحن على عدم ملاحقته
لأنه (بالرضا والسكوت، تتحول المطالبة بالحقوق نوعا من العقوق)

إن أعظم ما نحـتا جه اليوم ليس فقط الإصـلاح من فوق، بل الثورة الهادئة من تحت: ثورة وعي، وثورة كرامة، وثورة حق وشكاوى.

وحين نقرأ عن حقوقنا، ثم نرفض مذلة المعاملة في التفاصـيل اليومية، حين نعترض على احتقارنا في السـوق، والشـارع، والإدارة، حين نرفع رؤوسنا لنقول: "لنا حقوق وسنأخذها"، حينها فقط... سيستقيم حالنا.

سـيستقيم حالنا (18)
(إذا كنا على قدر الشهادات التي نحملها)

مهندس دولة، دكتور، ليسانس، أستاذ ...تقني وتقني سامي
هي تقريبا أسـماء الشـهادات التي تمنحها الجامعة الجزائرية والمعاهد للخريجين من الطلبة الذين أمضوا قرابة الـ 17 سنة على مقاعد الدراسة.

وقد كان لي صـديق أيام الدراسـة الجامعية من منطقة القبائل، وكان يعشق المراكز الأولى، فأجده على الدوام يمتطي أحصنة المواد الدراسية، وحين أسـأله لماذا يحب الإلمام بكل مادة، فيجيب: إنك مهندس يا عبد الرحمن، لا ينبغي أن يكون مستواك مستوى الطالب الثانوي ...

إن تخريج الجامعة لمهندس في شركة ما، يعني أنها جهزت شـخصـية بإمكانها الإجابة عن الأسئلة وحل المشكلات، شخصية لا تكتفي بمعرفة اسم المعدات، بل تفهم كيفية عملها وإصلاح أعطالها.

وصراحة، كنت وقتها أرى في كلماته بعض المبالغة، وأعزبها لحبه الشديد للتفوق، وبأنه ليس هذا هو الأمر الطبيعي، بل ما أنا عليه من قاعدة الرضـا بالقليل، والرغبة في تجاوز الامتحان وكفى، أو كما نقوله بلغة الجامعة (الحصول على علامة البار BAR) كان هو الأمر الطبيعي.

حتى دخلت مضـمار العمل، وشـعرت في لحظة معينة، ما تنتظره البلاد من مواطنيها، والمؤسـسـات من عمالها المحليين، خاصـة بعدما رأيت اسـتيراد بلدي لمهندسـين لأعمال ليسـت بالمعجزة، فأدركت أن هذا المسـتوى الذي أنا عليه، قد لا يرتقي للمسـتوى المطلوب، وهذا ليس بسبب نقص في العمل التطبيقي، بل لخواء حتى في الجانب النظري.

إنك لن تكون مطالبا في العمل أن تكون عبقري الشـــركة، بل فقط أن تكون على قدر الشهادة التي تحملها، وأن تكون أهلا للقبك الوظيفي.

هذا في العمل، أما في الحياة الاجتماعية، فقد لاحظت عدم تذكري للمواد الدراســية ومحتواها، بدءً من دروس الابتدائي إلى محاضرات الجامعة، وكأن كل معلومة كانت تغادر ذاكرتي بعد تجاوز امتحانها تاركة المجال لمعلومات الامتحان القادم ...

أليســت مشـكلة كبيرة أن يضـطر خريج الجامعة لمراجعة دراسـة مواد الابتدائي ليتمكن من حل تمرين الرياضـيات والفيزياء والكيمياء لابنه أو أخيه الأصــغر؟ فماذا يحمل إذن لقب المهندس؟ هل كان اللقلب مجرد شهادة دون مهارة، وعنوانا دون محتوى؟
إن السبب هو غياب الشعور بالمسؤولية تجاه جهد الأهل والأستاذ وما ينتظره الوطن والأمة، إنه الرغبة في العبور لا الرغبة في التزود، إنه فقدان للوعي بأن كل لقب، هو أمانة نسأل عنها.

عزيزي، الدكتور والمهندس والماستر والتقني، إن الحياة والشـــركات بل وحتى المواطن العام لا يحترمون ألقابنا بقدر ما يحترمون مهاراتنا، ألا تسـمعهم يدندنون دوما (أعطيني فاهم والله لا قرا)؟ من أين جاء هذا المثل لولا وجود من يحمل الشهادة ولا يحمل علومها؟

إن هذه ليسـت دعوة لتكون عبقري الزمان، بل هي دعوة لاحترام لقب الشـهادة الذي سـتذكره قبل اسـمك، هي دعوة لإعطاء المسـار الدراسي حقه من المذاكرة والاتقان والتثبيت، هي دعوة لأن تشـــبع تلك الرتبة الأكاديمية بتقنياتها، وتؤسسها على أركانها الصلبة، حتى تكون شهادتك إنجاز حقيقي وليس خداع ونجاح وهمي.

سـيستقيم حالنا (19)
(إذا كنا على قدر الشهادات التي نحملها)

مهندس دولة، دكتور، ليسانس، أستاذ ...تقني وتقني سامي
هي تقريبا أسـماء الشـهادات التي تمنحها الجامعة الجزائرية والمعاهد للخريجين من الطلبة الذين أمضوا قرابة الـ 17 سنة على مقاعد الدراسة.

وقد كان لي صـديق أيام الدراسـة الجامعية من منطقة القبائل، وكان يعشق المراكز الأولى، فأجده على الدوام يمتطي أحصنة المواد الدراسية، وحين أسـأله لماذا يحب الإلمام بكل مادة، فيجيب: إنك مهندس يا عبد الرحمن، لا ينبغي أن يكون مستواك مستوى الطالب الثانوي ...

إن تخريج الجامعة لمهندس في شركة ما، يعني أنها جهزت شـخصـية بإمكانها الإجابة عن الأسئلة وحل المشكلات، شخصية لا تكتفي بمعرفة اسم المعدات، بل تفهم كيفية عملها وإصلاح أعطالها.

وصراحة، كنت وقتها أرى في كلماته بعض المبالغة، وأعزبها لحبه الشديد للتفوق، وبأنه ليس هذا هو الأمر الطبيعي، بل ما أنا عليه من قاعدة الرضـا بالقليل، والرغبة في تجاوز الامتحان وكفى، أو كما نقوله بلغة الجامعة (الحصول على علامة البار BAR) كان هو الأمر الطبيعي.

حتى دخلت مضـمار العمل، وشـعرت في لحظة معينة، ما تنتظره البلاد من مواطنيها، والمؤسـسـات من عمالها المحليين، خاصـة بعدما رأيت اسـتيراد بلدي لمهندسـين لأعمال ليسـت بالمعجزة، فأدركت أن هذا المسـتوى الذي أنا عليه، قد لا يرتقي للمسـتوى المطلوب، وهذا ليس بسبب نقص في العمل التطبيقي، بل لخواء حتى في الجانب النظري.

إنك لن تكون مطالبا في العمل أن تكون عبقري الشـــركة، بل فقط أن تكون على قدر الشهادة التي تحملها، وأن تكون أهلا للقبك الوظيفي.

هذا في العمل، أما في الحياة الاجتماعية، فقد لاحظت عدم تذكري للمواد الدراســية ومحتواها، بدءً من دروس الابتدائي إلى محاضرات الجامعة، وكأن كل معلومة كانت تغادر ذاكرتي بعد تجاوز امتحانها تاركة المجال لمعلومات الامتحان القادم ...

أليســت مشـكلة كبيرة أن يضـطر خريج الجامعة لمراجعة دراسـة مواد الابتدائي ليتمكن من حل تمرين الرياضـيات والفيزياء والكيمياء لابنه أو أخيه الأصــغر؟ فماذا يحمل إذن لقب المهندس؟ هل كان اللقلب مجرد شهادة دون مهارة، وعنوانا دون محتوى؟
إن السبب هو غياب الشعور بالمسؤولية تجاه جهد الأهل والأستاذ وما ينتظره الوطن والأمة، إنه الرغبة في العبور لا الرغبة في التزود، إنه فقدان للوعي بأن كل لقب، هو أمانة نسأل عنها.

عزيزي، الدكتور والمهندس والماستر والتقني، إن الحياة والشـــركات بل وحتى المواطن العام لا يحترمون ألقابنا بقدر ما يحترمون مهاراتنا، ألا تسـمعهم يدندنون دوما (أعطيني فاهم والله لا قرا)؟ من أين جاء هذا المثل لولا وجود من يحمل الشهادة ولا يحمل علومها؟

إن هذه ليسـت دعوة لتكون عبقري الزمان، بل هي دعوة لاحترام لقب الشـهادة الذي سـتذكره قبل اسـمك، هي دعوة لإعطاء المسـار الدراسي حقه من المذاكرة والاتقان والتثبيت، هي دعوة لأن تشـــبع تلك الرتبة الأكاديمية بتقنياتها، وتؤسسها على أركانها الصلبة، حتى تكون شهادتك إنجاز حقيقي وليس خداع ونجاح وهمي.

تأملات
في علاقة الإنسان
بأخيه الإنسان

سـيستقيم حالنا (20)
(إذا أعيدت هذه الأحاديث النبوية إلى الواجهة)

يكون الدين جميلا إذا لم تأخذ قشوره مكان لُبه، ولم تكن هوامشه محل مَتنه، ولم تزاحكم سُـنته فرائضـه، ولم تطغي طقوسـه على أخلاقياته، ولم تتحول وسائله إلى غايات.

ولكن ما نلحظه في ديننا الجميل، أو بالأحرى في تدين معتنقيه، أنه قد قلبت فيه الموازين، وتداخلت الأولويات، وأهملت الأصـول، وبرزت الشـكليات إلى الواجهة لتخفي وراءها كثيرا من جواهر الدين العظيمة، والتي كان من المفروض أن تتصـدر هي قائمة التعليمات الربانية والوصايا النبوية، لجمالها أولا، ولقدرتها على صناعة مجتمع السلم وبناء الانسان في أرقى تجلياته الأخلاقية.

ففي ديننا الحنيف، هناك تعاليم رغم صحة ثبوتها ووضوح دلالاتها، إلا أنها لا تنال الاهتمام والتعظيم في خطابات الفقهاء أولا، وفي قلوب المؤمنين ثانيا، ومثال ذلك:

- الحديث الأول: (المؤمنُ من أَمِنَه الناسُ، والمسـلمُ مَن سـلِم المسـلمونَ من لسـانه ويدِه، والمُهاجِرُ مَن هاجَر السُّـوءَ، والَّذي نفسـي بيدِه لا يدخُلُ الجنَّةَ عبدٌ لا يأمَنُ جارُه بوائقَه)[12].

إن هذا الحديث هو ميزان الذهب الذي لو وزنت معه كل المظاهر الدينية والشكليات لرجحت كفته وحده، فهذا الحديث يحدد التعريف " النبوي " الصحيح للمسلم والمؤمن، فكأن المسلم تعني : كن مسالما،

[12]) الراوي : أنس بن مالك | المحدث : ابن حجر العسقلاني | المصدر : فتح الباري لابن حجر، الصفحة أو الرقم : 70/1

وكن مؤمنا تعني: كن مأمون الجانب، فيخرج من هذا التعريف، كل متدين لم يَسلم المسلمون من لسانه ويده، ويخرج منها كل مؤمن لم يأمنه الناس والجيران على دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

- الحديث الثاني:

سأل الصحابة نبينا عليه السلام فقالوا: (يا رَسولَ اللهِ، فُلانةُ تَصومُ النَّهارَ وتَقومُ اللَّيلَ، وتُؤذي جيرانَها؟ قال: هيَ في النَّارِ)[13].

إن هذا الحديث كفيل لأن يزيل كثيرا من الصور النمطية عن التدين، وعن الأعمال التي تدخل الجنة، ولك أن تعيد قراءة الحديث فتتأمل بنفسك وتتأكد، كيف أن قيام الليل وصوم النهار، لم يشفعا لصاحبة القلب القاسي واللسان الجارح.

- الحديث الثالث:

(لا يؤمنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبَّ لنفسه)[14].

إن هذا الحديث يكفي لوحده أن يقلب مجتمعنا جنة يعيش أهلها في بعد آخر من النعيم الدنيوي، حيث محبة الخير تتعدى النفس إلى الآخر

فيا عزيزي القارئ:

إن هذا المقال ليس دعوة للاستهانة والتقليل من مظاهر الدين وشعائره، بل هو دعوة إلى أن تأخذ هذه الأحاديث النبوية الشريفة المهملة مكانها الطبيعي، لا في الصفحات المهجورة من الكتب، بل في ضمائرنا، وفي شوارعنا، وفي مؤسساتنا، فتكون ميزاناً نزن به الصلاح ونعرف به التقوى، فالدين جاء إلينا، والنبي أرسل فينا، ليكثر في مجتمعاتنا الانسان الجميل والخلق الرفيع، فتنعم الأرض بحاجاتها: (الأمن والصلاح).

---

[13]) صحيح الترغيب، الصفحة أو الرقم : 2560

[14]) سنن الترمذي، الصفحة أو الرقم : 2515

ســيستقيم حالنا (21)
(إذا انتقلنا من المتابعة الميتة ... إلى المؤازرة الحية)

لما خاف نبينا يعقوب عليه السـلام على ابنه العزيز يوسـف من مرافقة إخوانه، قال لهم (وأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ)، فرد عليه الأبناء قائلين: (لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ)[15]، وهذا لأن في عُرف العُصبة والحمية، لا يليق التفرج على معاناة وهلاك أحد أعضـاءها أو تركه للعدو للاستفراد به. وهذا هو ما آلم يوسف وأحزنه، فبِئر يوسف وسجنه الانفرادي، كانا أوسع عنده من سعة جماعة إخوانه المزيفة.

إن هذه القصـة ليسـت مجرد حدث عائلي، بل هي صـورة مصـغرة عن كل جماعة لا تحفظ العهد والوفاء، إنها مثال عن كل فجوة بين الكلام والسـلوك، وبين اللسـان والقلب، فنبينا يعقوب عليه السـلام لم يكن في الحقيقة خائفا على ابنه من الذئب الحيوان، إنما من الذئب الانسـان، خاف على ابنه من إخوته، وليس من أعداءه، لم يخف عليه من الوحدة، بل من الجماعة المزيفة التي ضـاق قلبها بأحد أفرادها، خاف عليه من العُصـبة وليس من العزلة، لأنها كانت عصـبة كثيرة العدد، وخاوية المشاعر وكثيفة السراب ومنعدمة الحقيقة.

وهذا بالضـبط ما نحن عليه اليوم، نعيد تشـكيل ذلك القصـص مجددا، ولكن في مشهد أعظم، ها نحن عصبة تقارب المليارين، لكننا عثاء كغثاء السـيل. نحن اليوم، أمة انفجرت كما، وتبخرت نوعا، اتفقت مع العدو واختلفت مع الصديق، تحالفت مع المحتل، ولكن ضد ابن الوطن.

---

15) سورة يوسف، آية 14

إننا اليوم، بحاجة مســـتعجلة لتعلم ألف باء (الانتماء)، بحاجة لإعادة تعريف مفهوم " العُصــبة "، هذه الكلمة التي تســتحق أن تحاط بهالة من التأمل، فحروفها هي نفس حروف (العَصَب) والذي جماله الوظيفي في دوره "الحســي"، ذلك الحس الذي إن غاب قيل " تلفَ العصب ".

وعليه، فإن العُصبة إن لم تكن (ترابط عصبي) فهي أخطر من كل أنواع الانعزال، لأنها تحمل بين طياتها (الأمل المزيف ووهم النصـــــــرة وفخ الجماعة الهشة) وهذا أكثر إيلاما من الوحدة.

تأمل معي الصورة أدناه، إنها أمي وأمك، تحمل بين ذراعيها أخي وأخاك، وخلفها أهلي وأهلك، إنها تهرب من عدوي وعدوك، تاركة بيتي وبيتك، أرضي وأرضك، لمن يكرهني ويكرهك.

إن "غزة" هي يوسف هذا الزمان، غزة ليست متألمة من الطائرة الصهوينة التي قصفت بيوت ساكنيها، بقدر ما هي متألمة مني ومنك ومن جيمع إخوتها في الدين والإنسانية، من سكت منهم وما اكترث، من تفرج منهم ومن صمت، فالجرح مع صمت القطيع، كفيل بأن يجعل الفريسة تتهاوى مستسلمة، والأمة إذا عجزت أن تقول للظالم (يا ظالم) فقد ماتت. ومن مات محاربا للظلم ومقاتلا لطواغيته فقد أحياه لله في مكان آخر.

سـيستقيم حالنا (22)

(إذا كان التدين عموديا مع الله... وأفقيا مع الناس)

عندما نقول عن إنسان أنه " متدين " ... فماذا نعني بهذا؟
هل نعني أنه شخص يصلي، يصوم، يقوم الليل، كثير الذكر، وملتحي ...؟
نعم، قد يكون هذا جزءا من ذلك، لكن وفق معايير الله، هذا غير كاف.
فليس بهذا فحسب تُستكمل صورة الانسان الذي أراده الله في الأرض.

إن التدين المطلوب، هو الذي يتجلى في جمال علاقة الانسان بأخيه الانسان، هو التدين الذي يُعلن عن نفسه في ساحات الحياة، لأنه فعل حياة مع الناس، وليس "فقط" فعلا غيبيا مع السماء، فالله الذي أرادك عبدا في محراب الصلاة، قد أرادك أيضا إنسانا في محراب الحياة.

لا يهم الناس ما نحفظه من صفحات القرآن، ولن ينفعهم ما نقومه من الليل، ولا ما نصومه من النهار، ما يهم الناس حقا، هو تجليات الدين في علاقاتنا معهم، وتعاملنا بينهم، ما يهمهم حقا هو ألا نظلمهم، أن نعاشرهم بالخير، أن نحسن الكلام عنهم ومعهم، فنظرَ الناس منصب على "الزاوية الحياتية للمتدين"، وليس ما يقوم به من شعائر أو ما يتلوه من آيات. فكم من متعبد يقيم الليل، لكنه يعجز عن إقامة النهار، وكم من حافظ للقرآن لا يحفظ حقوق الناس، وكم من ذاكر لله، لم يتذكر فقراء حيه ومساكين مدينة، ومشاكل عائلته.

إن الناس لا تنتظر منك حفظ كتاب الله -رغم حبهم وتقديرهم لذلك-، بقدر ما تنتظر منك أن يحفظك كتاب الله من الغش والظلم ومن كل الآثام الاجتماعية، وهذا ليس مراد الناس فقط، بل مراد رب الناس الذي جعل العروج إليه يكون بالنزول إلى الأرض وحسن السلوك مع ساكنيها.

سـيستقيم حالنا (23)
(إذا أفشينا السلام .. عمليا)

(أفْشوا السّلامَ بينَكُم)[16] ... هذه وصية نبينا محمد عليه السلام، إن هذه الكلمات الثلاث، ليست مجرد وصية، بل هندسة خفية بإمكانها أن تضـيء سماء البشـرية، لكن وكما هي عادتنا مع الوصايا العظيمة، فقد وقعنا وأوقعناها في فخ السطحية، فغاب جوهرها وجانبها العملي.

" فالسلام عليكم "، ليست مجرد تحية، بل بداية عقد مقدس بين طرفين
" والسلام عليكم " ... إن لم تكن عملية، فهي كغلاف جميل بلا هدية.
" السـلام عليكم " .. هي عهد إيماني بأنك سـتكون جزءاً من طمأنينة الآخر، وسببا في ابتسامته، فتدعم مسيرته ولا تعكر سعيه وصفو يومه.

إن مجتمعاتنا تتبادل تحية السلام في كل اجتماع ولقاء، بينما نرى السلام يتراجع عن واقعنا وصـار أشـبه بالأحلام، نُلقي تحية السـلام ثم ما نلبث حتى نهشمه بتصـرفاتنا، غيبة هنا، نميمة هناك، نظرة ازدراء هنا، وكلمة تحطيم هناك.

لماذا يا تُرى نشهد تناقضا بين الحضور الدائم لتحية السلام على أفواهنا وغياب السـلام عن واقعنا؟ لماذا قد نفعل أي شيء سيء تجاه الآخر، إلا (السلام)، فإنه أصعب ما نجود به رغم مجانيته.

"السـلام عليكم"، هي إعادة تعريف لعلاقتنا بالآخر، فحين تقولها، فأنت -من المفروض- تخبر العالم أنك لن تكون سـبباً في جُرح، ولن تُشـارك في هدم، ولن تكون شريكا في غيبة ونميمة ولا متعاونا في إثم وعدوان.

[16]) أخرجه مسلم (54)، وأبو داود (5193)، والترمذي (2688)

تخيلوا لو أن كل تحية سـلام قيلت بمعناها، فكانت بداية أمان حقيقي، وكان مقصـدنا من قولنا (السـلام عليكم)، هو: "أنت في أمان مني"، ثم كان الرد علينا: (وعليكم السـلام) أي: و"أنت أيضـا في أمان مني"، فهو يعاهدك أن يكون على ذات النهج، فينشـأ بينكما وبكما مجتمع السـلم والأمان المنشودان.

ولو تأملنا الوصية النبوية وكلماتها، نرى أن نبينا لم يكن يدعونا إلى تكرار كلمة فحسب، بل إلى إفشاء قيمة في المجتمع، من أجل أن تكون الحياة أكثر أمنا والانسان أكثر طمأنينة.

أليس إفشـاء السـلام معناه أن يكون السـلام متفشـيا في المجتمع؟ وأن يكون السلام متفشيا، ألا تعني أن يكون منتشـــرا في كل زاوية وفي كل ركن، متجسـدا في كل كلمة ننطقها، ومع كل فعل نقوم به؟ بل وفي كل نية نكنها.

إننا اليوم ندفع ضريبة تسطيح الوصايا النبوية كعادتنا، وأخذنا لقشورها دون لبها، وهذا الفهم السـطحي، جعلنا نُلقي السـلام ولكن لا نفشـيه. نقوله ولا نقيمه، نتلفظ به ولا نعيشه.
صرنا اليوم نُسَلم ولا نُسالم، نصافح ولا نصفح، فصار السلام هو الحاضر الغائب، حضـــــرت حروفه وغابت معانيه الأمنية والسـلمية، فكم من سلام قيل وكم من سلام غاب.

فاجلعوا من تحية السلام هوية حقيقية تُرى فيكم قبل أن يكون كلمات تُسـمع منكم، حتى لا يصـيبنا مقت الله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)[17].

[17]) سورة الصف، آية 2-3

سـيستقيم حالنا (24)
(إذا كانت ردود أفعالنا .. تعاملاً مع الله)

أولسنا نتعامل مع الله؟
لا، فكثيرا ما تكون ردود أفعالنا في المواقف السيئة مساوية لفعل الآخر وعلى نمط الرد بالمثل، أو مستجيبة لرغبات النفس في رد الاعتبار، لكنها ليست كما أرادها الله أن تكون..هي ردود مساوية لكنها ليست راقية

ذاك المظلوم الذي لا يرد بالمثل على من يسيء إليه، ذاك الذي كظم غيظه وأعين الناس تراه مغلوبا، فتنهال عليه ألسنتهم باللوم والازدراء، هو في الحقيقة ليس مهزوما، بل هو شخص فضّل التعامل مع الله بدل المسيء، فرفع سقف التعامل من المستوى الأرضي للمستوى السماوي، ورفع سلوكه من مقام الرغبة النفسية ومبتغى الناس، إلى مقام المراد الإلهي. رغم أن قلبه يعتصر ألماً، رغبة في رد الاعتبار.

ذاك الإبن الذي لا يزال باراً بأبيه رغم قسوة الأب وجوره، هو شخص يتعامل مع الله وليس مع أبيه. ذلك الشخص الذي ما زال يدفع بالتي هي أحسن تجاه من يعاديه، ليس غبيا ولا جبانا، بل متعاملٌ مع الله، اختار الله فوق كل اختيار، وأثبت مبادئه لله ولم يثبت قوته للبشر.

إننا، في لحظات الغضب أو الظلم، نقف عند مفترق طريقين: إما أن نستجيب لنداءات النفس، أو أن نرتفع إلى مقام مراد الله.

والتعامل مع الله، هو تجاوز لرغبات الثأر والرد بالمثل، وهو في الحقيقة سيبدو إنهزاما ظاهريا أمام الناس، ولكن الانتصار الحق هو: أن حين أبدو أمامك مهزوما، بينما داخلي يقيم حفلة الانتصار الذي لا تعرفه ولا تراه

تأمل معي ذلك الرجل النبيل محمد عليه السلام، ذاق أصناف الأذى من قومه، وحين علم أنه بإمكانه الدعاء عليهم، فضل أن يكون الدعاء لهم، فقال (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون). تُرى هل كان هذا الرجل في عين الله ضعيفا أم عظيما؟ وهل كان هذا الموقف جُبنا أم نُبلا؟

أعجبني رد أحدهم عندما رماه الناس بوابل اللوم والتشفي، فقالوا له: إن فلانا هزمك ولم تقدر عليه ولن تقدر عليه، فرد قائلا: لم يهزمني فلان، هو فقط استعمل وسائلا لا يسمح لي الإيمان باستعمالها، فإن أقدم هو عليها تراجعت أنا عنها، لأن المنتصر بالوسائل الباطلة حتى وإن كانت فعالة خسران في عين الله.

إن هذه الكلمات، ليست دعوة للجبن والرضا بالإساءات على كل الأحوال، فالدفاع عن النفس فرض إسلامي، لكن هي دعوة وتذكير بأن معركة الحياة هي " معركة مبادئ " أكثر منها معركة " ألسنة وأياد ". إنها دعوة إلى عدم النزول إلى وحل الخصم، ووسائله، فالمنتصر في الوحل لن يخرج طاهرا مهما كان الانتصار. (انتصار ملطخ)

يقول إسلام جمال في كتابه (لكنود): "رأيتُ اللّه" ... هي كلمة أرددها، عقب كل معركة في هذه الدنيا ' فكل من كظم غيظه وضبط نفسه هو في الحقيقة ليس شخصا باردً، بل شخص استحضر الله في تلك اللحظة.

إنه اختيار شاق، أن تختار مقام التعامل مع الله, ليس سهلا أن تُسكت نفسك وتكظم غيظها، ليس سهلا عليها أن تظهر بهيئة المهزومة أمام الناس، ستحزن، ستستاء، قد تؤلم جسدك، قد تُذهب نومك، لكن صدقني، إن هذا هو الخيار الوحيد الذي لا يعقبه ندم، وتليه فرحة قد لا يراها الناس هنا، لكنهم سيشهدون ثوابها يوم يُجمع الجمع..ليوم لا ريب فيه.

سـيستقيم حالنا (25)
(إذا فعّلنا " الاستعاذة " في المواقف السيئة)

أخي الكريم، أختي الفاضـلة، إن عدوك ليس من تراه أمامك، عدوك ليس زوجك ولا أبناؤك، ليس جارك ولا أقرباؤك، عدوك هو ذلك الطيف الخفي الذي يحول بينك وبين حسـن العلاقة مع كل هؤلاء. عدوك هو إبليس، ذلك الكذاب..والكذاب..والكذاب، وأكبر أكاذيبه "أنه ليس هو المسؤول عما يحدث من شر بين البشر.

إن الشيطان يعرف أن وقتك قصير في الدنيا، ويعلم جيدا أن هناك مقام من طراز خاص ينتظر الصالحين، وقد طلب الاستزادة في العمر، ليَضل شعوب الله، لذلك، فإنه يخدعنا "بو ضع الأفكار السلبية في أذهاننا، ثم يوهمنا على أنها أفكارنا الخاصـة"، فهو منذ آلاف السـنين يسـعى إلى إفسـاد أفكارنا ومشـاعرنا، هل تعلمون لماذا؟ لأنه ببسـاطة يعرف أن طريقة تفكيرنا تؤثر على تصرفاتنا. فمبدؤه الأول والأخير: (أفسد التفكير والقلب، وستتبعهما بعد ذلك آلاف الأعمال الخاطئة).

إن الاستعاذة وبوصفها -وصفة ربانية- هي السلاح الذي يعيد العقل إلى صوابه، والقلب إلى طمأنينته، فتتبدد السحابة السوداء قبل أن تمطر عواقبها التي يليها الندم، فالاسـتعاذة كفيلة بإخماد نار المشـاكل قبل ابتداءها، إنها وصفة مختصـرة وشاملة تُسكت همسات الشـر في دواخلنا، قبل أن تتحول إلى كوارث، إنها بمثابة سـكب الماء على حريق ينوي الاشتعال، إنها بمثابة كلمة (Stop) تقال للشر إن نوى القدوم.

وعليه، سيستقيم حالنا لو أن كل نزاع عائلي أو خلاف بين الأصدقاء سكب عليه ماء (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

سـيستقيم حالنا (26)
(إذا قللنا من عبارات "ربي ينوب" و "ربي يفرج")

في مجتمعنا -إلا من رحم الله- صرنا نرى حضـورا زاد عن حده لجملة "ربي ينوب"، هذه الجملة التي تبدو بريئة في ظاهرها، ويكسـوها طلاء الطيبة، لكنها تحمل في أعماقها هروبا من المسؤولية الاجتماعية، فصارت تقال لكل سائل وفقير، وأصبحت كصك براءة من ذنب التقصير، فظاهر كلامنا أن (الله سيتولى أمرك) وحقيقته أن (قلوبنا أبت المساعدة).

أنا متيقن أن كثيرا ممن يقول هذه الجملة -وأنا واحد منهم-، كان لديه في جيبه أو في منزله أو في حسابه، ما يكفي لإحداث فرقٍ صغيرٍ في حياة سـائل بائس، لكنه اختار أن يقولها، بدلًا من أن يمد يد العون. وفضّـل إراحة يده وإرهاق لسـانه بعبارة لا تُشـبع الجائع ولا تُلبس العريان. والسـبب في هذا هو أن أيادي قلوبنا لم تُفتح، حتى وإن تعذرنا بأعذار (السـائل محتال، الأقربون أولى بالمعروف ... الخ) لكن في الحقيقة فذاك هو السبب، وسنجد أعذار أخرى تجاه الأقربين وغيرهم.

لستُ أدعوا هنا إلى الرحمة غير المتبصـرة، ولا إلى إعانة الكسالى، أو المتسـولين المحتالين، إنما أدعوا إلى أن نفهم أننا هنا مسـتَخلفين، وأن إصلاح مشاكل الأرض، هي مهمة الانسان، وليست مهمة الله عز وجل.

نعم، الله ينوب، لكن متى؟ عند عجزنا وغيابنا وقلة حيلتنا، فالله جعلنا في الأرض لنحل نحن مشاكل أخينا الانسان، لنكون نحن سندا لبعض.

سـيسـتقيم حالنا حين نقول "ربي ينوب" لأنفسـنا بعد أن نتصـدق من مالنا، وليس حين نقولها للآخر هروبا من مسؤوليتنا تجاهه.

إن الإشـكالية في الحقيقة ليسـت في كلمة "ربي ينوب" فهي تبقى كلمة جميلة وطيبة ولا يشـوبها عيبٌ، إذا نُطقت من قلبٍ صـادق عجز عن الفعل. المشكلة هي في عدم فهمنا لدورنا تجاه إخوتنا المساكين معنا.

المشـكلة هي أننا نسـتطيع أن نقولها للفقير، ولكن نعجز أن نقولها لأنفسـنا، فلو كنا مؤمنين بها لأعطيناه المال، ثم قلنا لأنفسـنا بكل راحة وسـكون "ربي ينوب علينا". لكننا نقولها ليس إيمانا بها، بل هروبا من المسؤولية بإلقاءها على عاتق السماء، وننأى بأنفسنا عن دورنا الإنساني.

نفس الأمر بالنسبة لـ "ربنا يفرجها عليك"، والتي نقولها بعد سماعنا للقصة الكاملة لمشكل صديقنا أو قريبنا، بينما كان هدفه من سردها لنا أن نساعده في حلها...وأن نكون نحن (فرج الله) الذي ندعو له به.

كم من مريض كان يمكن شـفاؤه لو جمعنا له مبلغ العملية أو الدواء – وهو أمر سـهل جدا إن نحن أردنا فعلا-، وكم من شـخص كان يمكن أن يتزوج، وكم من مشـكل كان يمكن دفنه في التراب، لو فقط نحن أردنا وعزمنا ورغبنا في إزالة ذلك المشكل من حياته.

لنقـل "ربي ينوب" و"ربي يفرج" لكن بعـد أن نعطي، وليس قبـل أن نحاول، علينا أن نكون نحن أيدي الله التي تُطعم وتمنح، نحنُ صـوته الذي يُواسي، ونبضـه الذي يُحيي الأمل. فما معنى أن نقول "ربي ينوب" ونحنُ قادرون أن نكون نحنُ "نوبته" في الأرض؟ أعطِ من مالك، امدد يدك، ثم قُل بعدها لنفسـك: "ربي ينوب عليّ". ولا أجد هنا من ينوب عني في الكلام غير ابن شـبرمة، حين قال: (إن سـألتَ أخاك حاجة، فلم يُجهد نفسـه في قضـاءها، فكبر عليه تكبيرات أربعة واعدده من عداد الأموات) فمن يمسح دمعت أخيه بيده، ليس كمن قال له: لا تبك".

سـيستقيم حالنا (27)

(إذا انتقلنا من ضيق التنافس، إلى سعة التعاون)

منذ مقاعد الدراسة حتى أروقة العمل، وربما بدأت القصة قبل ذلك مع آباءنا ونحن صغار، فقد عشنا -كغيرنا من الناس- بنمط لا يتوقف عن زرع روح السباق فينا، بحيث يكون العيب ليس عدم الوصول، بل لماذا وصل الآخر قبلنا، ليس بعدم النجاح، بل لماذا لم ننل أكثر من غيرنا...؟ فتربينا ليس على حب النجاح، بل على الخوف من التأخر عن غيرنا.

إن السؤال الصادق الذي تأخرنا فيه طرحه على أنفسنا هو: لماذا لا نخبر غيرنا بمسابقات التوظيف؟ ولا نشاركهم المراجع والتمارين؟
لماذا نخفي عروض السكن عن أصدقاءنا؟
لماذا جعلنا من التنافس وصولا لنا وحرمان لغيرنا؟ لماذا جعلناه حصولا لنا ومنعا عن سوانا؟ بل لماذا جعلناه أصلا نجاحا في الأخذ، وليس نجاحا في العطاء؟

لأننا وببساطة لم نفهم الحياة حقا، ولم نفهم مراد الله فيها، ولم نتعلم كيف وأين ولأجل ماذا نتنافس؟

إن المشكلة ليست في سعيك لأن تكون متفوقا، إنما في أن يكون هدف التفوق هو الأفضلية على فلان وعلان.

المشكلة هي في أن يشتعل فيك وقود الأخذ، وينطفئ فيك وقود العطاء، المشكلة هي أن تعلو فيك روح "الأنا" وتموت فيك روح "النحن".

المشكلة ليست في رغبتنا لأن نصل، المشكلة ألا نرغب في وصول غيرنا، وألا نفرح بوصول من وصل.

هل تعلم لماذا قال نبينا محمد عليه السلام: (والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى .. يُحِبَّ لأخيه... ما يُحِبَّ لنفسِهِ من الخيرِ)[18]؟

وقبل أن نُعلق على هذا الحديث، وجب أن نتساءل عن سبب قَسَم نبينا في فاتحة الحديث؟ لأن القسم هو أعلى مراتب التأكيد، وإشارة إلى أن ما جاء بعده لن يكون مجرد خُلق رفيق، بل "مقياس إيماني أصيل". وكأن في غياب هذا الركن ... لن تنفع بعده باقي الأركان.

وهل تعلم يا أخي إلى قول الله تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)[19]؟ بل وتأمل معي، كيف أنه لم يقل (تسابقوا) على البر بل قال (تعاونوا)، لأن من أعان على البر زاد له الفضل وتضاعف له الأجر. وذاك صحيح، فمن ذا الذي إذا أعان أخاه على طاعة، أو دلّه على خير، نقص من أجره شيء؟ أليست تقوى الرجلين هي خير لكليهما، وتأدب الجارَين هناء لهما، بل وتأمل كيف أن في ديننا "الدال على الخير في دينا كفاعله"[20].

إن التنافس يا أخي ليس لأمور دنيوية، نفارقها ولو بعد حين، بل لأمور عُليا نلاقيها ولو بعد حين، التنافس الحق، ليس بينك وبين فلان، بل بين نفسك الأمارة ونفسك اللوامة، بين نسختك التي يريدها الشيطان أن ترافقه في الجحيم، ونسختك التي يريد الله أن ترافقه في النعيم...

تنافس مع الناس في عدد مناصب الشغل التي توفرها للبطالين، وفي عدد اليتامي الذين تتكفل بهم، وفي صلة المساكين الذين تزورهم، وفي خدمة الأهل الذين تعيلهم، وفي اتقان الوظيفة التي تشغلها، وكل هذا مع "الرغبة" في أن يكون غيرك على هداك طبعا (حب الخير للغير).

---

[18]) صحيح النسائي، رقم 5032
[19]) سورة المائدة، آية 2
[20]) صحيح الترمذي، رقم 2670

سـيستقيم حالنا (28)
(إذا وسعنا فهمنا .. عن صلاة الجماعة)

إن صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته ببضع وعشرين درجة[21]، وهذا أجرها، ولكن ما هو مقصدها؟

إن حرص النبي عليها، لا شك وأنه لأجل مقاصد تخدم الانسان ذاته والمجتمع وليس الله، لا شك وأن لها فوائد غير الثواب، وتركها، له تداعيات غير العقاب ...فما هي أسرارها؟

إنها تمرين يومي على الوحدة، وتذكيرٌ دائم بأنك لست وحدك، لا في الصلاة ولا في الحياة. إنها ذوبان الذات المنعزلة في الكيان الأوسع، وتجرد من الفردانية وانظمام الأنا للنحن، إنها رسالة بأن (المؤمن قوي بإخوانه) وأنه لا انعزال في الإسلام، ولا اكتمال بلا آخرين.

فنبينا عليه السلام، لم يشدد عليها لمجرد نيل الدرجات، بل حرصا منه لبناء مجتمع البنيان المرصوص، كان يريد أن يلتقي المؤمنون خمس مرات يوميا، ليتفقد الناس بعضهم بعضا.

أذكر وأنا صغير السن، كنت أعاني من سعال حاد، وكنت في صلاة العصر جماعة، وبعد انتهاء الصلاة، تقدم إلي أحد المصلين وطلب مني أن يأخذني للطبيب ويتكفل بعلاجي، فما أبهى هذا التراحم المجتمعي، لقد صار من خلال صلاة الجماعة همي مشتركا، ولو لم أذهب للصلاة لما سمع بحالي أحد، فإن كان ظاهرها صلاة جماعة، فإنها في الحقيقة (صلة للجماعة) وهذا مقصدها الأعظم.

---

[21]) صحيح مسلم، رقم 694

إنها التقاء جماعي نعم، ولكنه ليس عشـــوائيا، فللجماعة إمام، تحتكم إليه، لا تســـبقه في ركن ولا تتأخر عنه في أداء، فالجماعة دون قائد هي فرقة وشتات وإن اجتمعت، وعزلة وإن كثرت.

وكم تطرب أدناي لحظة قول الإمام قبيل تكبيرة الإحرام: (استووا واعتدلووا .. القدم للقدم، والكتف للكتف يستوي الصف، لا تتركوا فرجات للشيطان بينكم، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)، إنها رسالة بأن الوجود الإسلامي لن يكون جميلا، إلا في انتظامه، ولا نافعا، إلا في وحدته.

في لحظة الاصطفاف هذه، لا سيد ولا تابع، لا غني ولا فقير، لا أبيض ولا أسود، لا قائد ولا جندي، وكأنها رسالة مفادها: (هكذا يجب أن نكون في الحياة، كما نحن في الصلاة)، فهي تربية بطريقة غير مباشرة.

وكم أحب حين يقول الإمام قبيل الصلاة أيضا: (هناك ساءل يسأل منكم الدعاء). فيبدأ هو بالدعاء ويهتف الحضور بعده بآمين، فترفع مئات الدعوات بدل الدعوة الواحدة، فيتأسس مجتمع التراحم والتكافل.
فإياك أن تصلي في المسجد، وتتفادى ملاقاة جارك أو تخرج من الباب الآخر حتى لا تلاقي أصحابك، فأنت بهذا لم تَصل الجماعة، بل ذهب جسدك للجماعة وبقي قلبك منفردا، فالجماعة هي تفقد للآخر، جارك، صديقك، من تعرفه ومن لا تعرفه، ولهذا السبب كان لها أجر وثواب.

سـيستقيم حالنا (29)
(إذا حفظنا للكلمات قدسيتها)

يحدث أحيانا أن نتساهل في رش المصطلحات، وإلقاء الكلمات والأوصاف على من لا يحمل معانيها حقا، فكل من مات محاربا تسميه فرقته شهيدا، وربما في ميزان العدل الإلهي يسمى "ظالما"، ومن حفظ أركان الايمان سميناه مؤمنا. وكل زملاءنا في العمل سميناهم أصدقاء..وكل من أدلى لحيته وقصر ثوبة صار فرقة ناجية، وكل من لبست جلبابا صارت هي العفيفة، وكم من شيخ ساكت عن الحق وقت الحاجة يسمونه "عالما"، وكم من عالم صادق نطق بالحق سُمي زنديقا.

إن اختلال ميزان الكلمة هو اختلال في الوعي، اختلال في التقدير، وسوء احترام للمعنى، فلكل كلمة دلالات، ولكل وصف ثقل والتزامات.

ولقد علمنا ديننا الحنيف، فقه الوصف، علمنا ألا نتلاعب بالكلمات لأجل المجاملات، وأن تحضر الإثباتات قبل أن تُعطى المقامات.

فحين قالت الأعراب "آمنا"، رد الله قائلا دون مجاملة: (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)[22]. وحين قالت اليهود (نحن أبناء الله وأحباؤه)[23] رد الله قائلا (بل أنتم بشر ممن خلق). وحين قال نوح عن ابنه (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ)[24]، رد الله عليه قائلا رغم قسوة الموقف: (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)[25]

---

[22]) سورة الحجرات، آية 14
[23]) سورة المائدة، آية 18
[24]) سورة المائدة، آية 45
[25]) سورة المائدة، آية 46

فعند الله لا مجال للمجاملة بالمصـــطلحات على حســـاب الحقيقة، ولا تُقبل عنده الكلمات قبل أن يتحقق معناها ومقتضاها والتزاماتها.

كم ظلمنا الحب وكم أهنا الصـداقة، وكم أسـأنا تقدير الدين، وكم قتلنا الحق، بسبب انتهاكنا لحرمة مصطلحات هذه المقامات وسوء إدارتها.

إنك حين تسمي شخصا مؤمنا، أو متدينا، فإنك تعلن عن مرتبة وجودية ســتكون هي القدوة، ســتكون هي الحق، وكل من ســواها هو الباطل، فهل نملك نحن هذا الحق؟

كن رزينا، وســـم الأشـــياء على مهل بمســـمياتها بعد تقديم إثباتاتها، واحفظ قدسـية الكلمة ولا تدنس معناها بمجاملات الألفاظ..فكل كلمة هي أمانة، وإعطاؤها لمن لا يسـتحق هو خيانة للذات ولقاموس الحياة. فكل لفظ يُطلق على من لا يستحق، هو سلب مِن مَن يستحق.

سنخســـــر الحبيب والصديق الحقيقي، إذا ساويناه بالمزيف ولو لفظا، سيغادر الحق أرضنا، إذا سمينا غيره حقا.

فما أعز كلمة أحبك إن قيلت بعد جهد الاثبات، وما أجمل أن يكرم الوفي بوسام "الصديق" وما أسوأ أن تتساوى معه المعارف السطحية، ما أجمل أن تعطى الكلمة لأصحابها، وأن يحرم منها من لا يدفعون أثمانها.

فلا تقل يا حبيبي لمن لا يفي بتعاليم المحبة، ولا يا صـــديقي لمن تفتقد وجوده المواقف، ولا يا أخي لمن لا يحمل أركان الأخوة. ولا تســـمي كل صاحب لحية بالمتدين، ولا كل متجلببة بالعفيفة، ولا كل من صلى معك مؤمنا، ولا كل من جهل دينك كافرا.

(فحين نمنح للكلمات قدسيتها، نعيد للحق هيبته وأهله)

سـيستقيم حالنا (30)

(إذا أخذ النخبة أمر العوام بعين الاعتبار)

جميلة هي المؤتمرات الفكرية، والكتب المؤلفة، واللقاءات والندوات، جيدة هي المبادرات الثقافية والنشـاطات التي ينظمها نخبة المجتمع ومثقفوه، فيخططون ويرسمون الطريق الراشد للعباد والبلاد.

ولكن، ماذا عن العوام؟ من يوصـل لهم هذا النور ومن يأتيهم بشـهاب قبس لعلهم يسطلون؟

أسعدني قيامي بمشـروع يخدم القراءة ويجمع القراء في فضاء واحد، تحت مسمى (بُعد آخر، قراءة وفكر)، لكن فرحتي ستكتمل إذا تعدت فائدته وثماره أسـوار القراء والنخبةَ لتصـل إلى أصـدقاءنا في المجتمع من العوام الذين لم يقرؤوا كتابا بعد، لكنهم يتوقون لفهم الحياة بشـكلها الصحيح، والنجاة من مخالبها وتحدياتها.

إن الجميل في الفكر ليس في لغته السـامية وأمكان تداوله الفخمة، بل حين نلبسـه ثوب البسـاطة، وننطقه بلغة عموم الناس، فكم من نبي حمل رسـالة السـماء، لكنه دار في الشـوارع والقرى وكم من فيلسـوف درس في الأرصفة والأروقة.

سـيستقيم حالنا (31)
(إذا تصاحبنا، حتى وإن لم نتجانس)

جميل هو التنوع، لكن لمن نظر إليه بأعين الجمال، ولمن رأى فيه تكاملا لا تصادما، ولمن استأنس به ولم يستوحش معه.

كم هو جميل أن نصاحب من لا يشبهنا، كم هو جميل أن يصاحب العربي الأمازيغي، ويصاحب المزابي العربي. دون أن يشعر أحدهم أنه في مقام " الأصل " والآخر في مقام " الفرع"، كم جميل أن يصاحب السلفي الإخواني، ويجالس الإباضي المالكي. دون أن يشعر أحدهم أنه "الحق والناجي" وأن الآخر هو "الباطل والهالك".

كم هو جميل أن يصاحب الغني الفقير، ويصاحب المثقف العامي، دون أن يشعر أحدهما أنه " الأعلى " والآخر أنه "الأدنى"، فيأخذ كل بيد أخيه، فلا يفسد الخلاف والاختلاف للود قضية.

ما أجمل أن يجلس جميعهم على طاولة " الأمة الواحدة" فلا تدور بينهم سوى كوب المحبة والكلمة السواء، ولا تُناقش بينهم سوى هموم الأمة. فعاشوا رحمة اختلافهم، واختلفوا مع من يسعى لتشتيت شملهم.

إن الله جعلنا شعوبا وقبائل لنتعارف، لا لنتقاتل، فباتفاقنا رغم اختلافنا، وبتصاحبنا رغم عدم تجانسنا، تتشكل الأمة الإسلامية التي لا يشترط في قيامها التشابه والتطابق بقدر ما يشترط فيها التعايش. قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) [26]، فهذه سنة الله، وهكذا أراد الوجود متنوعا.

[26]) سورة الروم، آية 22

سـيستقيم حالنا (32)
(إذا أرفقنا النصائح والتعليمات... بجمال الأسلوب والكلمات)

ما ندم شـخص يوما لكلمة طيبة قالها، ولا اشـمأز فرد يوما من أسـلوب جميل عومل به.

ففي عرف ديننا القويم، يقول ربنا الكريم: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ).[27] وقال أيضـا (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)[28]، وقال لنبيه (وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)[29] بل تأمل وتعجب كيف قال الله للمرسـلين لفرعون المتجبر: (فقولا له قولًا لَيِّنًا ...لعلَّه يتذكَّر أو يخشى)[30]

وفي عرف أمثالنا الشعبية الجزائرية الدارجة نقول: (اللسان لحلو يرضع اللبة: أي أنثى الأسد). ونقول (بات على غيظ وما تباتش على ندامة).

وفي عرف الشـركات والمؤسسات يقال (إن المطالبة الحسنة بغير حقك قد تمنحه لك كحق، والمطالبة السيئة بحقك قد تحرمك منه).

أتدري لماذا؟ لأن الكلمة الطيبة هي الضـعف الذي يلين الحديد، هي الضعف الذي لا يحمله إلا الشجعان، وهي " فن الفتح " للقلوب، بكل مـا تحملـه كلمـة "الفتح" من معنى، ولأن " طريقـة الكلام " هي في الحقيقة ... أهم من الكلام.

فما فائدة الصراحة يا أخي ... إن صحبتها الوقاحة؟

---

[27]) سورة فصلت، آية 34
[28]) سورة البقرة، آية 83
[29]) سورة آل عمران، آية 159
[30]) سورة طه، آية 44

إنه تنتشـــر في مجتمعنا ثقافة سامة، وهي أنه لا يجب الزعل من فلان إن كان لسانه جارحا، فإن بياض قلبه يمكن أن يكون له شافعا ...

فما فائدة النصيحة وهي فضيحة بين ملأ؟
وما فائدة أن تكون مازحا، وقوس لسانك يرسل سهما جارحا؟
وما فائدة بياض القلب، واللسان ملوث بالسواد؟ بل هل سوّد اللسانَ شيءٌ غير سواب القلب؟ ثم إن الناس لا تكترث لنوايا الصدور، بل إلى ما يطرق مسامعها ويفسد يومياتها.

(إن القلب الأبيض، لا يرضى أن يسكن خلف اللسان الأسود)

إن الانسان رغم أنه خلق من مادة قاسية، إلا أنها قابلة للكســـر بكلمة، بل إن الوالدين يمكن أن يكسرا بحرفي (أف).

لذا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن الانســـان لا تغيره الفكرة بقدر ما يغيره أسلوب إلقاءها. ولهذا نجد في شرع الله أن أسلوب التبليغ لا يقل أهمية عن الرسالة ذاتها. ونقل الرحمة لا يقل أهمية عن نقل الوحي.

يقول الدكتور نايف بن نهار[31]:
(إن النفس إذا غضبت أغلقت أبواب العقل)،
وقد صــدق، فكم من فكرة رُفضــت، ليس لأنها باطلة، بل لأن حاملها لا يجيد إيصالها.

(فأبواب النفس لا تفتح بالقوة، إنما بالمفتاح اللساني المناسب)

****

[31]) مدير مركز ابن خلدون للعلوم الاجتماعية والإنسانية في جامعة قطر ورئيس مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

سـيستقيم حالنا (33)
(إذا لم نكن سببا في قتل ... أفعال المروءة في الناس)

هل فكرت يوما أن خطأك السلوكي قد لا يضـرك وحدك؟ بل قد يتعدى ذلك لدرجة إتلاف بذور الخير في الناس، وقتل صفات المروءة فيهم؟

لكن، ماذا نعني بقتل أفعال المروءة في الناس؟

عندما تكون في ضـائقة مالية، وتسـتدين من أحدهم مالا، ثم إذا حان موعد إرجاعه، فتتماطل في رده، فإن من أقرضـك سـيمتنع عن إقراضـك وإقراض غيرك مجددا، لأنك كنت أنت النموذج السـيء الذي علمه الدرس القاسي، وبالتالي ستقتل فعل المروءة فيه وهو (إقراض الناس).

وعليه، فإن جرم قتل فعل المروءة والخير في الناس، قد يكون عند الله أعظم من جرم عدم رد الدين. لأنك أوقفت منبع الخير عن العمل، أوقفت مصدر الاحسان والحسنات. فحرمت بذلك المحسن والمستفيد.

كل كتاب تستعيره ولا ترده، فإنك توقف فعل مروءة (إعارة الكتب)
كل سلام لا ترده، فإنك بذلك توقف فعل مروءة (إلقاء السلام)
كل محاولة وصال لا تبادلها، فإنك توقف فعل مروءة (التواصل)

إن المروءة نبتة لا تنبت إلا في بيئة تحفظ المعروف ... وتعترف بالجميل

لذا، فإن سـوء أخلاقنا تجاه الأفعال الطيبة من الناس، يقتل فيهم صـفة المروءة، ويجعلهم يمتنعون عن فعلهم الحسن، لأنهم قوبلوا من أحدهم (الذي هو أنا وأنت) برد الاحسـان بالاسـاءة. ولأجل هذا قال مربينا العظيم في سورة الرحمن: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)

تأملات
في الأسرة

سـيستقيم حالنا (34)
(إذا لم يتم تأسيس طرفي الصراع في نفس العائلة)

يقول الدكتور نور الدين بكيس فيما معناه[32]: إن الأسرة الجزائرية هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن إنتاج الزوجين المتحاربين في آن واحد:

فعندما تُقبِل الفتاة الجزائرية مثلا على الزواج، تنبهها أسرتها (متمثلة في الأم والأخوات غالبا) على قواعد التعامل مع الزوج، بوضع خطة لكيفية فرض نفسها معه وبين أهله. وهم بهذا التصرف لا يسلمونها وصية حب بل خطة حرب، يسلحونها بكلمات المواجهة: كوني قوية، لا تفرطي في حقك، لا ترحمي جيبه، ولا تفتحي جيبك ...الخ

وبالمقابل، وفي نفس هذه الأسرة بالذات، إذا أقبل الابن على الزواج، فإنهم يزودونه بخطة السيطرة على زوجته، وأركان القوامة (الذكورية) لا (الرجولية الإسلامية) وذلك بنصائح قد لا يرضونها لو طبقت على ابنتهم واختهم السابقة التي نصحوها بالخطة العكسية في المقابل. فتراهم يوصونه: لا تطلق لها العنان، لا تسمح لها بكثرة الخروج، وزيارة لأهلها ولا بزيارتهم هم لها، لا تكثر دلالها...الخ

إنك تلاحظ بشكل واضح الكيل بمكيالين في الأسر الجزائرية، تحرض الأخوات أخاهم الزوج على زوجته، ويحرضن الزوجة على زوجها، وهم بهذا يصنعون سطوة في هذا وعناد في تلك، لا حمة في كليهما، ويصنعون التبارز لا التآزر، ويخرجون للمجتمع أزواجا متحاربين، لا نظائر متراحمين، فهم المؤلفون للخطط المسمومة التي تعطى باسم "الحرص".

---

[32]) نور الدين بكيس، كيف تكون مواطنا سيئا في الجزائر، منقول بتصرف

سـيستقيم حالنا (35)
(إذا كللت قصة زواجنا بـ "حب ")

كثيرا ما نسمع عن قصص الحب، عربية كانت أو أجنبية، خيالية كانت أو واقعية، حكايات خلدها الأدب أو حفظتها الذاكرة الشعبية، تلك الحكايات التي لم يأذن لها القدر بالوصال الشرعي والميثاق الغليظ، فتمنينا لو أنهم تزوجوا واكتملت الرواية العجيبة بتلك النهاية السعيدة.

فجميل جدا أن تكلل قصص الحب بالزواج، وجميل جدا أن يجتمع العاشق ومعشوقته تحت سقف الحلال، ومن الرائع أن تتبع دَقة القلب دَقة الباب، لكن الأجمل –والله هو الأجمل- أن تكلل قصة الزواج بالحب. فلا يكون الحب هو بداية الحكاية فقط، بل الرفيق الحامي لها ما طال بها الزمان.

صحيح أن الحب والميل أو الارتياح للطرف الآخر، قد يكون ركنا من أركان الزواج الذي لا يستهان به، ولكن حتى أكون صريحا، فإنه وبحكم ما قد رأيت وسمعت وجربت، فإنه لا يخيفني إقدام الفتاة على الزواج بشخص لا تشعر تجاهه بمشاعر الحب، فكم من علاقة بدأت والحب غريب عنها، ثم ما لبثت أن نما الحب وبان مع الوقت والمواقف، فكم من زهرة فُتحت على مهل، تحت رعاية صادقة. وكم من محبة ولدت من رحم المعاشرة.

وفي المقابل، كم من حبيبين انطفأ سراج الحب بينهما بمجرد زواجهما واجتماعهما، وهذا هو العار حقا، وهذا هو المخيف جدا.

فالزواج ليس غاية ومحطة أخيرة، الزواج ليس هو خاتمة التعارف، بل هو مقدمته، وليس هو الورقة الأخيرة من كتاب العلاقة، بل هو كل الصفحات التي تلي المقدمة. فيا بخت ويا سعد من كللت قصة زواجه بالحب.

سـيستقيم حالنا (36)

(إذا لم نساوم في بناتنا " حسب جمالهن ")

عند بعض الأسر، إذا تقدم الرجل لخطبة " جميلة البيت " جلس أهلها للتفاوض بكل عزة وشموخ، رافعين سقف الشروط عاليا، وطالبين الغالي والنفيس، لا لسبب، فقط لأنها "جميلة". والكل في الفوز بها راغب، فإن ذهب هذا فغيره الكثير، والطابور طويل، وكلهم باحثون عن المظهر الجميل لا عن الجوهر الدفين.

أما لو تقدم نفس الزوج لخطبة الفتاة الأخرى، والتي قد تقل جمالا عن شقيقتها، وربما تزيد عنها خُلقا وسمتا، فإننا لا نرى من العائلة نفس العزة والشموخ، الذي كان مقابل الفتاة "الجميلة" التي كان جمالها هو شرف العائلة -في نظرهم-. فتراهم مع الثانية يطلبون على استحياء وخوف ألا يُقبل بابنتهم، وكأنهم يعتذرون عن جمالها، فلا يشترطون سوى الحياة الطيبة. ولا مهرا سوى خاتما من حديد.

وهنا يتجلى الخلل ...

فحين ينظر لبناتنا من خلال ملامح وجوههن لا ملامح أرواحن، هو أمر نستهين به لكنه يبني لعداوة خفية بين البنت وشقيقاتها، وبهذا نكون قد خذلنا بناتنا جميعا، بما فيهم تلك الجميلة لاعوجاج نظرتنا لها، وفي المقابل خذلنا معاني الأمومة والأبوة التي من المفروض ألا تعترف بالفوارق، فعند الأم لا وجود لجميل وقبيح، وعند الأب الكل بناته والكل في عينيه جميلات وسيدات وقوارير.

وعليه، فسيستقيم حالنا...

حين يصبح لكل بناتنا ذات المكانة، ذات الاعتزاز، وذات الثقة.

سـيستقيم حالنا (37)
(إذا أعطينا المهر الغالي لذات الدين والخلق العالي)

نحن هنا سنسلط الضوء على الطرف الآخر، على العريس وأهله
إن بعض الشباب إذا تقدم لخطبة الفتاة الجميلة، واشترط أهلها ما علا وغلا من المهور، فإنه لا يعترض، بل يستجمع ما له من قوة ومال وجاه، فكل ذلك يهون، مادامت نهاية الأمر في الأخير هي جميلة .. البيت.

في حين لو طلبت نفس الشـــرط، الفتاة ذات الدين والخلق العالي، فإن الرجل ينتفض، ويستكثر المال عليها، ليبدأ في سرد الحديث الوحيد الذي يحفظه في هذا المقام، (التمس ولو خاتما من حديد)، وليس عيبا إن فعل مادام ذاك ما كان شرط "الفتاة"، وليس دعوة منه. ليس عيبا أن يدفع خاتم الحديد إذا كان من باب (التيسير) منها لا من باب (التبخيس) منه

أنا هنا لا أشجع على غلاء المهر لأي فتاة كانت، إنما أدعوا للبصيرة، فإن طلبت العفيفة والخلوقة مهرا مقبولا لا فحش فيه، فلا يليق (بالشـــهم الكريم) أن ينزله ويدنيه، لا لسبب، فقط لأنها متدينة، بل بالعكس من ذلك، كان عليه هنا أن يظهر تقييمه وتقديره لهذا التدين العطر، والخلق الحسن، فيتكرم ويزيد حتى ولو اشتلرطت هي خاتما من حديد.

إننا إذا أعطينا الذهب الخالص للجمال الزائل، وأعطينا الحديد للجمال الباقي، فعلى مجتمعنا السلام ...

وعليه، سيستقيم حالنا..
إذا جدنا بيد الســـخاء ونظرنا بعين التكريم، إلى ذات القيمة والخُلق الكريم، لا إلى ذات الصورة والخَلق الجميل.

ســيستقيم حالنا (38)
(إذا نظرنا إلى الخطأ، وليس إلى جنس فاعله)

وتســـتمر الأسرة العربية في نظرها المعوج للخطايا والمخطئين، فتارة هي رافعة يد الصـــــــــرامة على البنت، فاتحة تجاهها كلتا العينين وكاميرا الجيران ووصــايا الأصــدقاء، وتارة أخرى خافضــة كلتا اليدين وغاضــة الطرف وكلتا العينين عن تصـرفات ابنها الذكر، لا لشيء فقط لأنه ذكر.

قد يدس الأب وجهه في تراب الصـحراء أو مياه البحار، إن هو علم بخبر وقوع ابنته في الحرام، ويتمنى لو أن سكان المدينة كلها يصيبهم الصمم والخرس والعمى، فلا يجد هذا الخبر لآذانهم وألسنتهم سبيلا.

بينما لو أن نفس الأب، كان هو والد الفتى الذي وقع في جرم الزنى مع الفتاة، فلا عرق يسيل، ولا جبين يندى، ولا وجه يندس أو يعبس.

أتفهم ســـبب التركيز والاهتمام بجانب الأنثى والخوف عليها ومما قد تقترفه أو تقع فيه من العيب والحرام، فمجتمعاتنا الإنســـانية جمعاء وليس العربية فقط، لا ترحم المرأة الواقعة في الفعل المشين.

كما أن التاريخ لا يرحم، فكم نقرأ ونســـمع قصــصــا عبر العصــور ومن مختلف الحضــارات الإنســانية، عن (امرأة زانية) ولم يذكر التاريخ يوما (الرجل الزاني) الذي شـــاركها في الفعل. فكانت هي من حملت أغلال هذا العار الثقيل، وخرج هو بأيادي نظيفة وجسد طاهر.

بل والغريب، أنه حتى قواميس اللغة كانت ذكورية إلى حد ما، ولا أعرف سببا لهذا، فلا نجد في لغتنا العربية مثلا الكلمة المذكر لـــ كلمة (عاهرة) أو لـ (بائعة الهوى) أو حتى لكلمة (مطلقة).

والأمر نفسه في اللغات الأجنبية، فإننا نجدها تصف هذه المرأة الواقعة في الزنى، بكلمات مثل (Slut, whore, prostitute, harlot) وهي كلمات تحمل شـــحنة ســـلبية قوية، ومرتبطة بالخزي، خاصـــة الأولى (slut) التي تستخدم للاحتقار حتى دون وجود مقابل ذكوري لها.
ونجد بالمقابل أن الذكر يوصـــف بـــــ (Womanizer, playboy, Casanova, philanderer)، لكنها أو صاف أقل قسوة مما و صفت به الفتاة الزانية، بل وتوحي أحيانا بالذكاء والقدرة على ترويض النساء، وليست مشينة اجتماعيا. فحامل هذه الأوصاف يمكنه أن يضعها حتى كاسم أو وصف له في مواقع التواصل الاجتماعي دون أي خجل.

فلا بأس إن كان الحرص على الأنثى أكثر، خوفا عليها من هذه المآلات والظلم الاجتماعي متعدد المســـتويات والجنســـيات، وليس من باب أن ينظر لفعلها بمنظار الجريمة التي تطردها من الرحمة وإليها كأيقونة العار، بينما يُنظر لجرم الذكر بعين (اللا بأس فيه) واللا حرج منه.

فالله عاقب الزانية والزاني، والســـارق والســـارقة، فالفعل في ديننا هو أساس التقييم، والحياء فيه خلق مشترك مطالب به كلا الجنسين.
(وما دام العار يُلصق بالأنثى وحدها، والستر يُفرش تحت أقدام الذكر المشارك لها، فإن استقامة الحال، لا تزال بعيدة المنال)

الخاتمة

لا أجد ما أختم به كلامي، أجمل من وصية نبينا عليه السلام للحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، إذا قال له: (يا حارث، عرفتَ فالزم).

***

قيا أيها القارئ العزيز:

إذا عرفت فالزم ما استطعت.

التغذية الرجعية

حرصـــا مني على الارتقاء بهذا العمل للأفضـــل، أتقدم إليك أيها القارئ الكريم بهذه التغذية الرجعية، إذ يســـعدني اســـتقبال ما جادت به ملاحظاتكم وانطباعاتكم عن هذا الكتاب، علّ ذلك يسهم في الخروج به بأبهى حلة في قادم الطبعات.

- كيف ترى تصميم غلاف الكتاب؟
- هل يعكس عنوان الكتاب موضوعه ومحتواه؟
- ما رأيك في نوع الخط المستخدم في الكتابة؟
- ما هو أكثر موضوع لامسك في الكتاب؟
- ما هو أجمل اقتباس في الكتاب؟
- ما هو الموضوع الذي تمنيت لو أن الكاتب استفاض فيه؟
- ما هو السؤال الذي تطرحه على المؤلف؟
- هل توافق إرفاق الصور في بعض المقالات؟
- ما هي عيوب الكتاب؟
- ما هي النصيحة التي تهديها للمؤلف؟
- ما هو تقييمك لهذا الكتاب؟
- ما هو مصير هذا الكتاب بعد قراءته؟

يسرني استقبال إجاباتكم على الإيميل التالي:
douida.hse@hotmail.com

فهرس المحتويات

- تأملات في منهج الحياة
- تأملات في الوطن والمواطن
- تأملات في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان
- تأملات في الأسرة